
روايات الجيب
الإنتقام الهائل

روايات الجيب

الانتقام الهائل

للكاتبة الإنجليزية

مارى كوريللى

ترجمة : عمر عبد العزيز امين

- ١ -

انا رجـــل ميت .. ميت شرعا وقانونا .. ميت ومدفون تحت الثرى ..

سل عنى اهل مدينة « نابولى » مسقط راسى .. ينبئوك اننى كنت أحد ضحايا وباء « الكوليرا » الذى اجتاح المدينة فى الصيف الماضى وفتك بأهلها فتكا ذريعا .. وأننى مت ودفنت .. ووضعت بقاياى بين أجداث اسلافى ..

ولكنى رغم ذلك لا ازال حيا .. وأشعر بدم الشباب يفيض فى عروقى حـــارا ملتهبا .. وبعضـــلاتى قوية كالفولاذ .. وبعينى كعينى الصقر ..

نعم .. أننى حى أرزق على الرغم من ان اســمى قد شطب من سجل الاحيــاء .. حى ومستمتع بكامل قواى الجثمانية والعقلية .. ولم تترك بى الاهوال التى مررت بها سوى أثر واحد ظاهر ..

* * *

كان شعر رأسى من قبل اسود كخافية الغراب .. أما الان فقد استحال سواده الى بياض الثلج .

وقد لاحظ أحد الاطباء مرة الفارق بين بياض شعر رأسى .. وعلامات الفتوة التى تتجلى على محياى .. فسألنى :

ـــ هل ذلك نتيجة ضعف وراثى ؟

وسألنى آخر :

ـــ هل اصابتك صدمة عصبية عنيفة ؟

وقال ثالث :

ـــ هل تعرضت لحرارة فجائية شديدة ؟

ولكنى لم أجب على واحد من هذه الاسئلة .. فقد أجبت مره .. وسردت قصتى على رجل قابلته مصادفة .. وكان من الاطباء المبرزين المعروفين بالبراعة وطبيب القلب .. فأصغى الى حتى فرغت من قصتى . وظهرت على وجهه علامات الدهش والذعر ، وقال تلميحا أننى لابد مصاب بضعف عقلى ..

وقـــد حزمت أمرى منـــذ ذلك الوقت على الا أسرد قصتى لاحد ..

اما الان فاننى اكتب .. اكتب وانا بعيد المنال .. فاسجل الحقائق على هولها وفظاعتهـــا دون خوف او وجل .. بل وفى استطاعتى ان اغمس القلم فى دمى اذا اردت .. فليس ثمة من ينازعنى ارادتى .. لاننى أعيش هنا بعيدا عن المدنية فى بعض الاصقاع الامريكية وسط الطبيعة العذراء الهادئة الساكنة .. التى لا يقلقها فى بعض الاحيان غير حفيف أوراق الاشجار تحت ضربات الريح الطليقة ..

* * *

قلت اننى ميت .. ولكنى لا زلت حيـــا .. ولعلكم تسألوننى كيف أمكن ان أكون ميتا وحيا ، وجوابى على ذلك ايها القراء انـــكم اذا اردتم التخلـــص من جثث اقاربكم .. والتخلص منها عن يقين .. فليس افضل من أن تحرقوها وتذروا رمادها فى الهـــواء . والا عجزتم عن ان تجزموا بما يكون من امرها بعد دفنها . .

* * *

ان احراق جثث الموتى . . هو افضل الطرق للتخلص

منها .. بل انه الطريقة الوحيدة النظيفة المأمونة .. وانى أعجب لاولئك الذين يبرمون بهـــا .. ويثــورون عليهـــا .. وفى اعتقـــادى ان التخلص من جثث الذين نحبهم ، أو نزعم اننا نحبهم باحراقها فى النيران المطهرة وذر رمادها فى الهــواء النقى هو خير الف مــرة من وضعها فى التراب الرطب البليل عرضه للهوام المفزعة .. والزواحف القذرة التى يرتجف لمنظرها اقوى الرجال قلبـــا ..

بيد ان هناك ما هو اشد هولا من الهوام والزواحف .. هناك الشك ..

اذ ماذا يحدث لو اننا وضعنا فى القبر جسد الشخص العزيز الذى فقدناه .. ثم ظهر ان جميع الاحتيـــاطات التى اتخذت للتأكد من وفاته لم تكن كافية ؟ .. ماالذى يحدث إذا لم يكن ذلك الشخص العزيز قد مات فعلا ؟

- واخيرا ماذا يحدث اذا لم يكن القبر مكين البنيـــان وخرج الميت من مقره الاخير يسعى ؟

الا يحزننا عندئذ اننا لم نقطع الشك باليقين باحراق جثة الميت كما كان يفعل البرابرة الاقدمون ؟ وهل لايكون حزننا أشد اذا كانت صلتنـــا بالميت المزعوم تجيز لنـــا وراثته والاستمتاع بثروته ؟

• • •

ولكن لاترك هذا الان .. ولأبدأ فى سرد قصتى ..

نعم .. سأبدأ الان .. أنا فابيو رومانى الذى توفى ودفن مؤخرا ..

• • •

سأبدأ فى سرد حوادث عام واحد ، عام اجتمعت فيه

آلام عمر كامل .. عام قصير .. هو طعنة حادة بخنجر الزمن ، طعنة شقت قلبي .. ولا يزال الجــرح الذى احدثته دامياً عزيز على الاندمال ..

هنالك نوع واحد من آلام الحياة لم اتذوق طعمـــه رغم شيوعه بين غالب الناس .. واعنى الم الفقر .. ذلك لانني ولدت غنياً .. وتوفى أبى الـــكونت فيليبو رومانى وانا لا ازال صبياً فى السابعة عشرة من عمرى .. وكنت الوريث الوحيد لثروته الطائلة .. وأصبحت بوفاته راس أسرة رومانى العريقة ..

وكان لأبى أصـــدقاء كثيرون .. راحو جميعـــا بما طبعوا عليه من كرم وطيب قلب يرسلون عنى مختلف النبوءات .. فبعضهم تنبـــأ لى بأسوأ مســـتقبل .. وتنبأ لى البعض بالدمار صحياً واخلاقياً ومالياً . وقال عنى ابعدهم نظراً وأرجحهم رأياً أننى سأصبح مقـــامراً متهوراً .. وعربيداً مسرفاً ، ولعل اعجب ما فى الامر ان شيئاً من هذه النبوءات الكريمة لم يتحقق .. لاننى نشأت رجلاً يمقت اللذائذ الدنيا ، والرذائل المستباحة عند مختلف الطبقات ، فكانت المغامرة فى نظرى جنوناً ، والافراط فى الشراب مضيعة للصحة ، والتبذير اهانة للفقراء ، وقد اخترت لنفسى فى الحياة طريقاً وسطاً بين البساطة والرفاهة ...

اقمت فى القصر الذى خلفه لى والدى ، وهو قصر بديع قائم على نشز مرتفع عن الارض يطل على خليج « نابولى » .. وفى هذا القصر او فى حدائقه المترامية كنت اقضى جل وقتى .. وقـــد صرفت فيه عدة اعوام من اسعد سنى حياتى .. تحيط بى الزهور والـــكتب والصور الفنية الرائعة .. ولم يكن يختلف على فى ذلك

الفردوس الارضى غير جماعة مختارة من الاصدقاء جلهم من الشباب الذين تتفق ميولهم وميولى ..

ولم أكن ارى النساء الا قليلا .. أو كنت لا اراهن ابدا .. والواقع اننى كنت اتجنبهن بالغريزة.. وامتنع عن تلبية دعوات اولئك الذين اعلم ان عندهم بنات يطلبون لهن ازواجا ..

كانت جميع الكتب التى قرأتها تحذرنى من النساء.. وقد وجدت عندى اذنا مصغية ونفسا واعية.. وطالما سخر منى بعض اصدقائى لنفورى من النساء ..ولكنى لم اكن اقيم وزنا لسخريتهم وهزئهم .. وكنت أضرب عرض الافق بكل ما يقولونه ويفعلونه لتغيير رايى وعقيدتى فى النساء .

كنت اومن بالصداقة اشد مما أومن بالحب ، وكان لى صديق اصطفيته واحببته ولم يكن يعز على ان ابذل الحياة فى سبيله..

وكثيرا ما اشترك صديقى هذا ــ واسمه ــ جيدو فيرارى ــ مع سائر اصدقائى فى السخرية منى والهزء بى لفزعى من النساء ..

كان يقول لى :

• • •

ــ تبا لك يا فابيو .. انك لن تتذوق طعم الحياة حتى ترتشفها من شفتى احدى الحسان .. اما هذه الكتب التى تقول لك غير ذلك فاجدر بها أن تصبح طعاما للنيران .. واما الفلاسفة الذين يحذرونك من النساء فلم تكن تجرى فى عروقهم دماء ..

* * *

وكنت أصغى اليه .. وابتسم ..

لم يكن فى كلامه ما يقنعنى .. ولكنى كنت أحب ان انظر اليه وهو يتكلم .. وان اصغى الى حديثه ..

كان صوته يسيل عذوبة ورقة .. وكانت عيناه افصح من لسانه .. والله وحده يعلم كيف كنت أحبه حبا صحيحا خالصا من شوائب الانانية .

كنت إشعر بالسعادة فى صحبته .. وكان يخيل الى انه يشعر بمثل ذلك فى صحبتى .. فذهبنا نقضى جل اوقاتنا معا ..

كان مثلى قد حرم من والديه وهو فى شرخ الشباب .. وتعين عليه ان يشق طريقه فى الحياة بمواهبه فاختار الفن حرفة .. واصبح رساما ممتازا .. ولكنه كان فقيرا بقدر ما كنت غنيا .. فاهتممت باقالة حظه العاثر .. وعنيت بمساعدته فى لباقة دون أن أخدش شعوره ، أو اجرح كبرياءه ..

على انه قدر للانسان فى هذه الحياة مهما كان وديعا مسالما الا ينعم طويلا بالسعادة خالصة من الاكدار .. فنظرة واحدة .. او كلمة واحدة .. او لمسة واحدة تكفى لتعكير صفوة وتمزيق سعادته ..

وقد كان ذلك نصيبى ..

ففى يوم خالد فى تاريخ حياتى .. كنت اسير فى احد شوارع « نابولى » التماسا للتسلية فى غيبة صديقى جيدو الذى اضطر الى السفر الى روما فى زيارة تستغرق بضعة أسابيع .. فسمعت نشيدا رقيقا .. ورأيت موكبا كمواكب الملائكة مقبلا نحوى ..

ادركت انه موكب العذراء .. الذى يحتفل به فى المدينة مرة كل عام .. والذى يتألف عادة من الراهبات

وفتيات الاديرة .. وكلهن فى ثياب ناصعة البياض ..
تريثت فى مكانى بدافع الخمول والفضول ، وانتظرت مرور الموكب ..
واخذت أصوات الغناء تقترب شيئا فشيئا .. ومرت بى صفوف الراهبات .. وبدأت صفوف فتيات الاديرة
وفجأة .. وقع بصرى على وجه رائع الجمال .. لفتنى دون غيرة .. وجه تتألق فيه عينان سوداوان كأن سوادهما قطعة من الليل .. وجه ملائكى كوجوه الابرار
كان وجه فتاة من فتيات الدير ..
وجه مخلوقة من العنصر الذى نشأت على تجنبه والنظر اليه بعين الحذر ..
رمقتنى بنظرة سريعة .. من تلك النظرات التى تغير مصائر الرجال ..
ومضى الموكب ..
ولكن تلك اللحظة الوجيزة .. كانت خاتمة حلقة فى تاريخ حياتى ، وبداية حلقة جديدة ..
اقترنت بها بطبيعة الحال . لاننا معشر أهل «نابولى» لا نضيع الوقت فى امثال هذه الشؤون . فنحن نرى .. ونحب ونسرع الى امتلاك المرأة التى نحبها .. دون ان نترك لانفسنا وقتا للتفكير .. ووزن المقدمات والنتائج .
ولست بحاجة الى الاسهاب فى سرد قصة غرامى .. فاننى رأيت « نينا » اسم الفتاة — وأحببتها من أول نظرة .. ولم تكن ثمة عقبة تحول بينى وبينها ..
كانت « نينا » هى الابنة الوحيدة لنبيل متلاف فقد ثروته .. ولم يعد له ايراد غير ارباحه من موائد الميسر .. وقد تعلمت الفتاة فى دير اشتهر بنظامه الدقيق .. فنشأت لا تدرى من شؤون الحياة شيئا .. او ان هذا على الاقل ما ذكره لى ابوها ..

قال لى عنها والدموع تترقرق فى عينيه : انها طاهرة نقية كقطرات الندى على أوراق الزهر .. فصدقته .. والواقع ماذا كان ينتظر من طفلة بريئة محتشمة مثلها أن تعلم من أمور الدنيا ؟ ..

وتزوجنا فى شهر يونيو ، وقال لى صديقى « جيـــدو » عد ان هنأنى فى ليلة الزفاف :

ــ يسرنى انك أفدت من نصائحى يا فابيو .. ان الشيطان الهادىء هو دائما ابرع الشياطين .. وقـــد عرفت يا صاحبى كيف تفوز بأجمل بنات حواء فى كل ايطاليا ..

فشددت على يده وانا أشعر بوخز الضمير .. لاننى أصبحت لا أحله من نفسى المحل الاول بعد اذ عرفت « نينا » واحببتها .

ولم يزدنى مرور الايام الا شغفا بزوجتى ..

كانت جاذبيتها لى تزداد يوما بعد يوم .. وقد عرفت بغريزتها ايا من نظراتها يستهوينى كما عرفت مواطن الضعف من نفسى .. واستطاعت بانوثتها الفاتنة ان تجعل منى عبدا لها .. واننى لاتساءل الان ترى هل كانت تحبنى ؟ .

* * *

نعم .. اظن انها كانت تحبنى وانما كما تحب تسعون فى المائة من النساء ازواجهن .. اى لما يستطعن أن يفدنه منهم ..

* * *

وقد فتحنا ابواب قصرنا للطبقة المختارة من أهل نابولى .. وصار قصر آل رومانى ملتقى للاسر النبيلة فى المدينة .. ونالت زوجتى اعجاب الجميع .. وفازت بعطف

عام .. واصبح جمالها مضرب الامثال فى كل مجتمع ..
وكان صديقى جيدو فيرارى فى طليعة المتشدقين بجمال زوجتى ولطفلها ودماثة خلقها مما ضاعف حبى له ، واعجابى باخلاصه .. وكنت اثق به كما اثق باخ لى .. فتركت له مطلق الحرية فى الدخول والخروج وغشيان القصر فى اى وقت يشاء ، وسمحت له بأن يقدم الهدايا والزهور لزوجتى .. وشعرت فى وقت ما باننى المخلوق الوحيد فى العالم الذى اكتملت سعادته واجتمع له الحب والغنى والصداقة .. وكل ما يمكن ان يطمع فيه الانسان
وقد فاضت كأس سعادتى بعد شهور عندما وضعت زوجتى طفلة شقراء بديعة ..
وكنت أتناول طعام الافطار مع صديقى « جيدو » فى صبيحة أحد الايام .. عندما ابلغت النبا وجاءتنى الخادمة بتلك المخلوقة الصغيرة .. فتناولتها فى رفق ..
فتحت عينيها .. فامعنت النظر فيهما فاذا هما سوداوان واسعتان ساحرتان كعينى « نينا » ..
قبلتها .. وقبلها جيدو .. واجالت المخلوقة الصغيرة بيننا نظرة بريئة مستفسرة ..
وما أن اعدت الطفلة الى الخادمة .. حتى القى « جيدو » بيده على كتفى .. فنظرت اليه .. فاذا هو شديد شحوب الوجه ..
قال لى بصوت متهدج :
ــ انك رجل طيب القلب يا فابيو ..
فقلت له ضاحكا :
ــ احقا تقول ؟ وكيف ذلك ؟ اننى لست افضل من سواى .
فأجاب وهو يشيح عني بوجهه :
ــ انك اقل ريبة من غالبية الازواج ..

فنظرت اليه فى دهشة .. وسألته :

ـــ ماذا تعنى يا صديقى ؟ .هل ثمة ما يدعونى الى الارتياب فى أحد ؟ .

فأجاب وهو ينظر الى نظرة صريحة :

ـــ كلا .. كلا .. ولكن جو نابولى مشبع بعوامل الريبة .. مشحون بالقيل والقال .. وخنجر الغيرة مشهور دائما .. والامانة الزوجية اصبحت مهزلة من مهازل هذا المجتمع .. افليس عجيبا بعد هذا ان يجد الانسان رجلا مثلك يا فابيو قد صفا جو حياته الزوجية من شوائب الشك والغيرة ؟ .

فقلت له :

ـــ اننى لا أجد ما يثير فى نفسى عوامل الشك والغيرة .. فزوجتى نينا بريئة كالطفلة التى وضعتها اليوم ..

فأجاب :

ـــ هذا صحيح .. نعم .. هذا صحيح .. انها طاهرة نقية كالثلج على قمة « مونبلان » .. بعيدة المنال كأقصى الكواكب .. خالصة من الاكدار كأصفى الماسات .. اليس كذلك ؟ ..

فاطرقت برأسى موافقا ..

وسرعان ما انصرف حديثنا الى شئون اخرى .. فلم الق بالا الى الكلمات التى سمعتها منه ..

ولكن جاء وقت .. بعد فترة وجيزة .. وجدت نفسى فيه مضطرا الى تذكر كل كلمة نطق بها فى ذلك اليوم .

- ٢ -

يعلم جميع الناس فى انحاء العالم بامر الوباء المخيف الذى اكتسح « نابولى » فى الصيف الماضى .. فقد -

حفلت الصحف بوصف فظاعاته واهواله ..

تفشت « الكوليرا » فى انحاء المدينة .. وفتكت باهلها فتكا ذريعا .. فلم تفرق بين الصغير والكبير .. او بين الصحيح والعليل .. وساعد على انتشارها قذارة القوم .. واهمال ذوى الشأن فى المدينة اتخاذ الاحتياطات اللازمة فى الوقت المناسب .. فكان الناس يستنشقون جراثيم الوباء مع الهواء .. ويتساقطون فى الشوارع والطرقات ، فمن اصابه المرض وجد من يحمله ميتا ولم يجد من يسعفه حيا ..

كانت الام تفزع من ابنها المصاب .. والزوجة تتنكر لزوجها .. والاب يفر من ولده .. وقد نشر الفزع والموت اجنحتهما على المدينة المنكوبة .. ففر منها من استطاع .. ولم يبق بها غير الذين لم تسعفهم وسائلهم على الفرار .

واشتدت الحرارة فى ذلك الصيف شدة منقطعة النظير ساعدت على تفشى الوباء .. بيد أن قصر «آل رومانى» كان قائما فوق ربوة مرتفعة بعيدة عن المدينة مما جعله بمأمن من وصول الوباء اليه ..

وقد اتخذت جميع الاحتياطات اللازمة لمنع اتصال اهل القصر بسكان المدينة . وخطر لى مرارا ان افزع بزوجتى وابنتى الى روما او غيرها من المدن التى لم يدركها الوباء .. ولكنى اشفقت من الفرار السريع وما قد يترتب عليه من الاتصال بأحد الموبوءين .

وفضلا عن ذلك فان زوجتى لم تكن فى فزع من تلك الحالة المخيفة .. وفى اعتقادى ان النساء الحسان قل أن يصيبهن الفزع فى مثل هذه الاحوال لان لهن من كبريائهن وصلفهن خير واق من اهم عناصر الخطر .. الا وهو الخوف ..

اما ابنتى « ستيلا » — وكانت قد بلغت الثانية من عمرها — فانها كانت تستمتع بصحة موفورة .. فلم اشعر ولم تشعر امها بالقلق من ناحيتها ..

واقام معنا صديقى « جيدو فيرارى » وانقطعت كل صلة بيننا وبين المدينة التى كان الوباء يفتك فى أهلها بالمئات ..

ومما ساعدنا على احتمال العزلة والوحدة ان الله وهب زوجتى صوتا ساحرا .. فكانت تشنف اسماعنا فى تلك الامسيات الحزينة بانغامها الشجية . وانى لاذكر الان — وانا اكتب هذه السطور — كيف كان « جيدو » يشترك معها فى الغناء فى بعض الاحيان .. وكيف كان يعجب بصوتها ويستزيدها .. فتجيبه الى مطلبه بما طبعت عليه من طاعة ، ودماثة خلق ..

استيقظت مبكرا فى صبيحة يوم من اشد ايام ذلك الصيف القائظ حرارة .. وانطلقت الى حديقة القصر التماسا للهواء البليل الذى يهب من ناحية الخليج .

اخذت اسير فى الحديقة وبين يدى كتاب لافلاطون .. فلفحت وجهى نسمة بليلة رفهت من الاثر الذى تركه فى نفسى الجو الخانق الذى كنت اعانيه بين جدران القصر

مضيت فى طريقى بين أشجار الحديقة .. وانا منصرف الى التفكير فيما قرأت فى كتاب افلاطون .. وحملتنى قدماى دون ان اشعر الى مكان خارج حدود القصر والحديقة ، ولم أنتبه الى ذلك حتى رأيت ساريات السفن فى الخليج فهممت بالعودة من حيث اتيت .. ولكنى سمعت فجأة صيحة جعلتنى اجمد فى مكانى ..

كانت صيحة ألم مخيف .. اشبه بالانين الذى يصدر عن حيوان يتعذب ..

أجلت الطرف حولي .. باحثا عن مصدر هذه الصيحة

المؤلمة . . فرأيت غلاما من باعة الفاكهة يناهز الثانية عشرة من عمره ملقى على وجهه فوق المشب . .

قصدت اليه لساعتى .. وجدت بجانبه سلة ملأى بفاكهة تغرى الناظرين بالتهامها .. ولكنها شديدة الخطر فى زمن الوباء ..

مسست كتف الغلام بيدى وسألته :

ــ ماذا بك يا ولدى .. ؟

فتلوى بفعل الالم .. ورفع الى وجها جميلا .. ولكنه متقلص التقاطيع ، واجابنى وهو يئن ويتوجع ..

ــ الوباء يا سيدى .. الوباء .. ابتعد عنى بحق السماء .. اننى أموت ..

ترددت ..

لم اكن مشفقا على نفسى .. وانما كان كل اشفاقى على زوجتى وابنتى ..

كان يتعين على ان اكون حريصا من اجلهما .. بيد ان شعورى لم يطوع لى ان اترك الغلام وشأنه ليموت كالكلب .. دون أن أمد اليه يد المساعدة ..

قررت فى الحال ان انطلق الى « الميناء » فى طلب الاسعاف للغلام ..

قلت له مشجعا :

ــ تشجع يا ولدى .. ولا تقنط .. ليست جميع الامراض من فعل الوباء .. ابق حيث انت حتى أعود اليك .. سأنطلق الان فى البحث عن طبيب ..

فنظر الى الغلام نظرة عجيبة تدعو الى الشفقة .. وحاول ان يبتسم ..

واشار الى حلقة .. وبذل جهدا ليتكلم .. ولكن بغير جدوى ..

انكمش فى مكانه .. واخذ يتلوى كحيوان اصيب بجرح مميت ..

تركته على عجل ، وقصدت الى الميناء .. وصادفت بعض الناس يتسكعون على الشاطىء .. فأوضحت لهم حالة الغلام .. وطلبت مساعدتهم لنقله الى حيث يمكن اسعافه .. ولكنهم رفضوا أن يرافقونى اليه رغم الاجر الباهظ الذى وعدتهم به .

لعنت جبنهم ونذالتهم .. وانطلقت فى البحث عن طبيب . وانتهيت أخيرا الى عيادة طبيب فرنسى معروف فى تلك المنطقة .. وقد اصغى الطبيب الى حديثى فى نفور واشمئزاز ، ولما فرغت من وصف حالة الغلام التعس ، هز نصير الانسانية ومخفف ويلات البشر رأسه باصرار ، ورفض أن يبرح مكانه .

قال لى بايجاز :

ــ تستطيع أن تعتبره ميتا .. ومن الافضل أن تبحث عمن ينقل جثته ..

فصحت به :

ــ ماذا تقول ؟ . الا تبذل اية محاولة لانقاذه .. وتخفيف المه ؟ .

فاحنى رأسه وقال باحترام :

ــ عفوا يا سيدى .. ان اقترابى من شخص موبوء بالكوليرا يعرض صحتى وحياتى للخطر .. طاب يومك يا سيدى ..

وولانى ظهره .. فاضطررت الى الانصراف .

لم أعبأ بحرارة الجو فى المدينة الموبوءة .. ولم أعبأ بالخطر .. وانطلقت فى المدينة ابحث عن العون والنجدة سمعت صوتا شفوقا يقول لى :

ــ هل تبحث عن نجدة يا ولدى ؟ .

فرفعت عينى الى المتكلم ••.

كان أحد أولئك الرهبان البواسل الذين هجـروا الاديرة •• وتطوعوا لمناضلة الوباء فى معقله •• فحييته باحترام •• وأوضحت له غرضى •• فقال وفى صـوته رنة اشفاق وعطف :

ـ سأذهب اليه في الحـال •• انني أحمل معى العقاقير اللازمة •• ولكنى أخشى أن أصل بعد فوات الاوان • ..

فقلت له :

ـ سأذهب برفقتك يا أبت •• ان الانسان لا يجـوز له أن يترك كلبا يموت دون أن يمد اليه يد المساعدة •• فما بالك بغلام تعس يخيل الى أنه وحيد لا صديق له ••

فصعدنى الراهب بعينيه وأنا أسير معه جنبا الى جنب وقال :

ـ انك لاتقيم فى قلب المدينة •• أليس كذلك ؟ •

فذكرت له اسمى •• وكان قد سمع به لعراقة أسرتنا فى الجاه والنبل ••

قلت له :

ـ ان القصر يقع على ربوة مرتفعة خارج المدينة •• ونحن نستمتع هناك بكامل الصحة •• ولم اقـدر قبل اليوم مبلغ الفزع الذى يملأ قلوب الناس هنا •• بيد أننى لاحظت أن هناك ما هو شر من الوباء •• وأعنى جبن الناس ونذالتهم ••

فأجاب فى هدوء :

ـ هذا صحيح •• ولكن ماذا تنتظر غير ذلك ؟ لقد أصبح الناس عبيدا للذاتهم •• فهم يتمسكون بالحياة بالنواجذ ••

ـ ولكن أنت يا أبت •• كيف

وكففت عن الكلام على الرغم منى .. فقد أحسست فجاة بصداع مؤلم ..
قال الراهب :
ـــ اننى اخدم الانسانية .. والوباء اذن لا يفزعنى .. لاننى على استعداد لتلبية نداء ربى فى كل وقت ..
كان يتكلم بصوت هادىء خلو من الصلف .. فنظرت اليه باعجاب .. وكدت افصح عن اعجابى .. ولكنى شعرت فجاة بدوار .. وتعلقت بساعده لامنع نفسى من السقوط ..
خيل الى ان الشارع يهتز حولى .. واننى اسير على سطح سفينة تتقاذفها الامواج .. وارتسمت امام عينى حلقات من نار ..
على ان هذا الشعور زال بالتدريج .. وسمعت صوت الراهب كأنه صادر من مكان سحيق ..
كان يسألنى فى قلق عما اصابنى . فاجبته وانا احاول الابتسام ..
ـــ اصابنى دوار .. من تأثير الحرارة بغير شك .. اننى لا استطيع مواصلة السير .. فدعنى .. واذهب انت لنجدة الغلام .. آه .. يا الهى ..
تأوهت عن تأثير الالم الشديد الذي خيل الى انه كاد يمزق جمجمتى .. واعضائى ..
ولم تقو ساقاى على حملى .. ومرت بجسدى رعدة شديدة وخيل الى كأن نصلا باردا حادا قد غاص فى جسدى .
ادرك الراهب ما اصابنى ولم يتردد فى العمل لحظة واحدة . فاحاطنى بساعده القوى . وقادنى الى حانة او مطعم حقير فى ذلك الشارع . واجلسنى على مقعد خشبى . ودعا صاحب المطعم

وعلى الرغم من انني كنت اعانى آلاما مبرحة لاتكاد تطاق فانني ظللت محتفظا بجميع حواسي .

ـ اسهر عليه جيدا يا (بيترو) .. انه الكونت فابيو روماني الغني المعروف .. لن يذهب تعبك سدى اذا سهرت عليه .. ساعود اليك بعد ساعة على الاكثر ..

فهتف بيترو :

ـ الكونت روماني .. يا الهي .. لقد اصابه الوباء.

فصاح الراهب بحدة :

ـ صه ايها الابله .. من قال لك انه اصيب بالوباء ؟؟ انه مصاب بضربة شمس ايها الجبان .. اسهر عليه جيدا او يكون مصيرك جهنم ..

فظهر على وجه (بيترو) علامات الفزع .. ولكنه اطرق براسه علامة الطاعة ..

وفي هذه الاثناء .. كان الراهب يسكب في فمي بعض العقاقير الطبية . فاستسلمت له .

قال لي في رفق :

ـ ابق هنا يا ولدي .. هؤلاء قوم طيبون ، وفي استطاعتك ان تطمئن اليهم .

سأذهب الان الى الغلام الذي جئت تطلب له المساعدة .. وسأعود اليك قبل انقضاء ساعة .

فألقيت يدي على ساعده . وقلت له بصوت ضعيف :

ـ ابق لحظة يا ابت .. ارجوك أن تذكر لي الحقيقة. هل اصابتني عدوى الوباء ؟ .

فأجاب بصوت ينم على الاشفاق :

ارجو الا يكون ذلك يا ولدي . ولكن على فرض انك مصاب بالوباء . فانك في مقتبل العمر .. وقوى البنية .. وفي استطاعتك ان تقاوم بلا خوف ..

قلت له :

ـ انني لست خائفا يا أبت .. فقط أرجوك أمرا واحدا .. هو الا تنبىء زوجتي بمرضي .. عدني بالا تنبئها .. واذا فقدت الرشد .. وأسلمت الروح .. فاقسم بالا تنقلني الى القصر .. إقسم .. لن يطمئن لي بال حتى تقسم ..

فقال بصوت حزين :

ـ انني أقسم ياولدي .. أقسم بكل ما هو مقدس أن أحترم ارادتك .

شعرت بارتياح عظيم .. فقد ضمنت سلامة أولئك الذين أحبهم ..

شكرته بنظرة صامته .. لانني كنت في حالة من الضعف لاأستطيع معها الكلام .. وتركني الراهب ومضى .. وما كاد يتوارى عن بصري حتى فقدت الرشد ..

ولا أعلم كم انقضى من الوقت وأنا في تلك الغيبوبة .. ولكن عندما ملكت نفسي قليلا بعد ذلك .. كان أول ماسمعته أنينا مؤلما خافتا منبعثا من صدري .. ثم رأيت عينين واسعتين تنظران الى .. وتبينت صوتا هادئا يقول :

ـ كن مطمئنا ياولدي .. كن مطمئنا .. واستودع الله نفسك ..

كان المتكلم هو صديقي الراهب ..

عرفته .. وامتلأت سرورا وطمأنينة ..

كان قد عاد من مهمته ..

أردت أن أستفسر منه عن الغلام .. ولكن لم استطع نطقا .. بيد أنه أدرك معنى نظراتي .. فرسم على صدره علامة الصليب وقال :

ـ ليرحمه الله .. لقد وجدته ميتا .

دهشت ..
ايمكن ان يموت بهذه السرعة ؟؟
وشرد عقلى مرة اخرى ..
ليس فى استطاعتى الان ان اذكر جيدا ما حدث لى بعد ذلك ..
كل ما اذكره الان اننى كنت اشعر بآلام هائلة .. واننى سمعت حولى فى لحظة ما ، ما يشبه الصلاة والابتهال ..
واذكر فى النهاية اننى رايت صليبا من الفضة يلمع امام عينى .. واننى صرخت صرخة مخيفة .. ثم اظلمت الدنيا فى عينى .. وشعرت بأننى اهبط .. واهبط .. واهبط .. فى هوة مظلمة لا قرار لها ..

— ٣ —

اعقبت ذلك فترة ظلام .. وهدوء ونسيان ..
ثم شعرت .. كما يشعر النائم الحالم .. كأن اجنحة خفية تهتز حولى .. وكأن مخلوقات غريبة لا لون لها ولا شكل تحوم بالقرب منى ..
وشبه لى أن عيونا تنظر الى من الظلام .. ثم كأن يدا ضخمة تهبط فوق صدرى وتطبق على عنقى باصابع من فولاذ ..
تهيأت لمقاومتها .. واخذت اقاوم بشدة وعنف .. وحاولت ان اصيح .. ولكن صوتى احتبس فى حلقى .
أخذت اتحرك يمنة ويسرة .. وتلك اليد المخيفة لا تزال تضغط على عنقى .. كأنها تريد ان تعصر الحياة من جسدى .

محاولة اخرى .. واتخلص منها ..
هانذا قد انتصرت .. هانذا قد تخلصت منها ..
استيقظت ..
يا الهى .. اين أنا ؟
وما هــذا الجو الخــانق ؟ .. وما هــذا الظلام الدامس ؟
أخذت استرد حواسى شيئا فشيئا ..
تذكرت المرض الذى انتــابنى فجاة ...ثم تذكرت الراهب .. وبيترو صاحب المطعم ..
اين هما الان ! .. وماذا صنعا بى ؟
وشعرت بالتدريج اننى ممدد على ظهرى .. وممدد على شىء صلب ..
تبا لهم .. لمــاذا رفعوا الوســائد التى كان راسى مسندا عليها ..
خالجنى شعور عجيب .. فجعلت اتحسس يدى ..
كانت الحرارة تدب فيهما بشدة .. ولكن ما هــذا الذى يحبس انفاسى ؟
الهواء .. الهواء .. اننى بحاجة الى الهواء ..
اننى اختنق ...
ورفعت يدى فى فزع وذعر .. ولكنهما اصطدمتا فى جسم صلب قابع فوق صدرى ..
تبلجت لى الحقيقــة . بأسرع من خطف البرق .. لقد دفنت .. دفنت حيا .. وما هذا الجسم الصلب الجاثم فوق صدرى سوى غطاء التابوت الذى وضعوا فيــه جثتى .
استولى على فزع وجنون .. فأخذت اضرب بيدى ذات اليمين وذات الشــمال .. واعمل اظــافرى فى

الالواح الخشبية .. ولكن جميع جهودى ذهبت ادراج الرياح ..

زادنى الغضب والفزع قوة ..

كانت كل ميتة مهما بلغت فظاعتها اهون من الميتة التى تنتظرنى ..

كنت اختنق .. واشعر بان عينى قد جحظتا واوشكتا على البروز من محجريهما .. وانبثق الدم من فمى وانفى .. وتجمعت على جبهتى حبات من العرق البارد ..

تمهلت لالتقاط انفاسى .. ثم جمعت كل ما بقى لى وما اولانيه اليأس من قوة .. وضغطت على احد جوانب التابوت .. فحدثت قرقعة شديدة .. ثم تمزق التابوت .. فتنفست الصعداء ..

بيد اننى ما لبثت ان شعرت بخوف جديد ..

سألت نفسى .. ماذا يكون من امرى لو اننى كنت مدفونا تحت التراب .. بدلا من القاعة الفسيحة التى تجمع توابيت اسلافى ؟ وما الفائدة فى هذه الحالة من تحطيم التابوت والخروج منه ؟

شرد عقلى مرة اخرى .. وخيـل الى اننى مشرف على الجنون .

ولكنى وجدت اننى اتنفس بسهولة .. بل واحسست بنسمة باردة رطبة تلفح وجهى .

انعشتنى هذه النسمة وشجعتنى واحيت موات املى .. فمددت يدى .. واخذت ازيل قطع الخشب المحطمة .. وخرجت من التابوت ..

كان الظلام دامسا .. ولكن كان هناك مجال للتنفس .. وهو اهم ما فى الامر ..

ومرت بجسدى رعدة شديدة لا اعلم هل كان سببها

برودة جو المكان .. او الحمى التى كانت لا تزال تغلى فى عروقى ..

وبدأت افكر فى موقفى برزانة وروية ..

كان من المؤكد اننى دفنت حيا ..

تلك حقيقة لا شك فيها .. ومما لا شك فيه كذلك ان الالم عندما اشتد بى .. وفقدت الرشد .. حسب القوم اننى اسلمت الروح وذهبت ضحية الكوليرا .. فعجلوا بدفنى كما كانوا يعجلون بدفن سائر الموتى فى ذلك الوقت العصيب ..

ولكن بقيت مسالة .. هى اين دفنت ؟

فكرت فى ذلك طويلا .. ولم اهتد الى جواب ؟

ولكنى تذكرت اننى انبأت الراهب باسمى قبل ان (اموت) فهو كان يعلم اذن اننى من سلالة اسرة (رومانى) المشهورة .. فترى ماذا فعل الراهب الطيب القلب بجثتى بعد موتى ؟ لابد انه فعل ما يمليه عليه الواجب .. فحملنى الى مدفن أسلافى الذى لم يفتح منذ وفاة ابى ..

كنت اعلم ان فى نهاية المدفن بضع درجات تنتهى بباب يوصل الى الخارج .. فأخذت اتلمس طريقى وسط الظلام باحثا عن ذلك الباب ..

قلت لنفسى .. وما الفائدة من العثور على الباب .. وهو ولا شك مغلق .. ويستحيل فتحه دون اداة ؟

نعم .. كنت اعلم انه باب ضخم من خشب السنديان .. وان القوم اعتادوا ان يحكموا اغلاقه من الخارج بمزلاج حديدى قوى .. وان حارس المدفن لا يذهب لزيارته الا مرة كل بضعة اسابيع .. فماذا يكون من امرى اذا تعذر على فتح الباب .. وهو المنتظر ..

واذا صرخت حتى بح صوتى دون ان يسمعنى او يخف لنجدتى احد ؟

استولى على الفزع مرة اخرى . فجعلت اسير فى المدفن على غير هدى ..

وتذكرت فجأة ان القوم قد دفنونى على عجل .. فلابد اذن انهم تركونى بكامل ثيابى مخافة العدوى ونشر جراثيم الوباء .. كما كانوا يفعلون بضحايا الكوليرا .. فأخذت اتلمس ثيابى .. ومست يدى شيئا مدلى من عنقى ..

اثار ذلك الشىء فى نفسى ذكريات مؤلمة حزينة ..

كان سلسلة رقيقة من الذهب يتدلى منها اطار به صورة لزوجتى وابنتى ..

تناولت الاطار فى الظلام .. واخذت اقبله .. وابلله بدموعى ..

وكانت تلك اول مرة بكيت فيها بعد (موتى) فأحسست بقطرات الدموع تلهب خدى ..

ان عالما تشرق فيه ابتسامة (نينا) جدير بأن يحيا فيه الانسان .. فلابد لى اذن ان اجد فى سبيل الحياة .. مهما صادفنى من الاهوال ..

خيل الى ان عينيها الساحرتين ترسلان الى من خلال الظلام نظرات حزينة يائسة ..

ورأيتها بعين الخيال جاثية تبكى وتنتحب فى الغرفة التى شهدت اسعد ايام حياتنا ..

وتبلج لى وجه (ستيلا) الصغيرة ..

لابد ان هذه المخلوقة البريئة الطاهرة تنظر الان حولها فى عجب .. وتسأل لماذا لم يعد اباها .. ولماذا لم يحملها كما كان يفعل الى الارجوحة التى اقامها فى

الحديقة بين اشجار البرتقال .. و (جيدو) .. ذلك الاخ الوفى .. والصديق الكريم .. لابد ان حزنه على موتى لا يعادله الان حزن ..

كلا .. كلا .. لا يجب ان ادع وسيلة للخلاص دون ان اطرقها ..

وابتسمت .. حينما تصورت معالم الفرح ومظـــاهر السرور تملأ جوانب القصر الذى ينتظرنى فيـــه الحب الصحيح .. والصداقة التى لا تشوبها شائبة .

وتقدمت بضع خطوات فى البحث عن درجات السلم الموصل الى باب المدفن ..

ولكن ما هذا ؟

ما هذا الصوت الساحر ..

رفعت راسى .. واصغيت ..

كان صوتا عذبا .. يأخذ بمجامع القلوب .. صوت بلبل يترنم ..

وثبت من مكانى وانا اضحك وابكى من فرط السرور .

كان هـــذا البلبل بالنســـبة لى رســـول الرحمـــة والخلاص ..

انعشنى صوته وشجعنى .. فبـــادرت الى تنفيذ الفكرة التى طرات لى عندما سمعت شدوه ..

قررت ان اسير على هدى الصوت .. فالبلبل كان ولا شك يترنم وهو جاثم فوق احدى الاشجار بالقرب من باب المدفن .. فاذا انا تبعت الصوت واقتربت من مصدره .. وجدتنى حتما قريبا من الباب ..

تقدمت ببطء وانا ارتجف من فرط الضعف والانفعال .. وكان البلبل لا يزال يغنى .. فما لبثت ان ارتطمت بحجر وسقطت فوقه .. وتبينت للحال اننى ســـقطت

فوق درجات السلم ..

لم تؤلمنى السقطة برغم شدتها .. لان جميع حواسى كانت منصرفة الى الامل الذى انشده .. ولما رفعت راسى لانهض من سقطتى .. وقع بصرى فى الظلام على ما انطلق لسانى بالشكر لله ..

رايت بصيصا من ضوء القمر ينبعث من ثقب فى الباب .. فتهالكت فى مكانى ..

وفى تلك اللحظة .. دقت ساعة الكنيسة ..

كانت الساعة الواحدة .. وعما قليل يتبلج ضوء الفجر ..

قررت ان اخلد الى الهدوء والسكون حتى الصباح .. وكنت متعبا منهوك القوى .. فأسندت راسى على حجر السلم بارتياح ، كما لو كان الحجر وسادة من افخر انواع القطيفة .. وما لبثت ان استغرقت فى نوم عميق ..

ولابد ان اكون قد نمت بضع ساعات .. وعندما استيقظت القيت بنفسى على باب المدفن بسرعة المجنون .. واخذت اهزه بعنف ، واصيح مستغيثا .. ولكن دون جدوى .. فقد كان الباب ثابتا كقطعة من الصخر .. ولم تصل استغاثتى الى اذن انسان ..

كان الجزء الاعلى من الباب مصنوعا من قضبان حديدية متشابكة .. فرايت اوراق الشجر من خلال القضبان .. ووقع بصرى على فرع شجرة من اشجار الكروم يتدلى بالقرب من الباب .. فوثبت نحوه .. وامسكت به ..

كانت اوراقه مبللة بالندى .. فاقتطفت ما وصلت اليه يدى من اعناب ناضجة .. والتهمتها بشراهة ..

وخيل الى انها اشهى من كل طعام تناولته فى حياتى ..
واطفأ عصير العنب النيران التى كانت تحرق حلقى
.. ولسانى ..
واشعرنى منظر الاغصان الخضراء بهدوء لم اشعر
بمثله منذ بعثت حيا ..
أحسست بالطمانينة .. بعد الفزع والرعب ..
ووجدت الشجاعة على ان انظر خلفى الى جوف
المدفن ..
رأيت ــ وانا افعل ذلك ــ شيئا صغيرا ابيض اللون
ملقى على احدى درجات السلم ..
انحنيت .. والتقطه بشىء من الاشمئزاز .. وامعنت
فيه البصر ، فاذا هو شمعة صغيرة لابد ان احد
الرهبان قذف بها بعد الفراغ من دفني ..
نظرت الى الشمعة الصغيرة مفكرا ..
لو اتيح لى فقط ان احصل على عود ثقاب ..
دسست يدى فى جيوبى .. فسمعت صوت تصادم
اشياء بداخلها ..
حقا .. لقد دفننى القوم على عجل .. وتركوا لى
ثيابى وكل ما كان فى جيوبى ..
وجدت كيس نقودي .. وربطة من المفاتيح ..
وبعض بطاقات الزيارة ..
نظرت الى هذه الاشياء فى فضول .. كانت اشياء
مألوفة .. ولكنها بدت لى غريبة ..
بحثت فى جيوبى مرة اخرى .. وعثرت فى هذه المرة
بشىء ذى قيمة حقيقية ..
عثرت بعلبة ثقاب (كبريت) ..
ترى هل تركوا لى كذلك علبة التبغ ؟

كلا .. لم أجد لهذه العلبة أثرا ..

كانت علبة فضية نفيسة .. ولابد أن يكون الراهب الذى لزمنى فى ساعاتى الاخيرة قد حملها مع ساعتى الثمينة الى زوجتى ..

لا بأس .. ليس فى استطاعتى أن ادخن ولكن فى مقدورى أن أشعل عود ثقاب .. وأضيء الشمعة ..

ولم تكن الشمس قد بزغت بعد .. فكان يتعين على أن أنتظر حتى يحين الوقت المناسب الذى أستطيع فيه أن أستغيث ، وأن أرجو ان تصل استغاثتى الى آذان بعض المارة ..

وخطر لى فى تلك اللحظة خاطر غريب ..

لماذا لا ألقى نظرة على التابوت الذى وضعت فيه جثتى ؟

شجعنى وجود علبة الثقاب فى جيبى .. فاضأت الشمعة .. وهبطت السلم وانا لا أشعر بشيء من الخوف أو الجزع .. وذهبت أشق طريقى فى المكان الذى قضيت فيه ليلة من أهول الليالى التى يمكن ان تمر بانسان ..

- ٤ -

رأيت على ضوء الشمعة بعض الزواحف والهوام المقيتة تسعى بالقرب من الجدران .. فمررت بها .. وانطلقت أبحث عن تابوتى .. وسرعان ما عثرت به .. فقد كانت تميزه آثار التحطيم ..

كان موضوعا ــ أسوة بغيره من التوابيت ــ فى فجوة فى الجدار ترتفع عن الارض نصف متر تقريبا ..

فحصت التابوت ..
كان مصنوعا من الخشب الدقيق .. وجميع الدلائل تدل على انه صنع على عجل .. وهى حقيقة يجب ان اشكر الله عليها .. لانها كانت سببا فى نجاتى ..
نظرت فى جوفه .. فوقع بصرى على شىء يلمع بداخله ..
تناولت الشىء ، فاذا هو صليب من الابنوس الاسود مزركش بالفضة ..
لا شك ان الراهب الطيب القلب وضعه فوق صدرى .. قبل ان يدفع بى الى ما اعتقد انه مقرى الاخير ..
دسست الصليب فى جيبى .. لكى ارده الى الراهب متى قابلته ..
وسألت نفسى : ترى هل نقشوا اسمى على التابوت ؟
ارسلت ضوء الشمعة على هيكل التابوت .. فرأيت اسمى مسجلا عليه بحروف سوداء .. وتحته تاريخ ميلادى .. وتاريخ وفاتى .. وكلمة مفادها اننى ذهبت فى ريعان شبابى ضحية وباء الكوليرا ..
وتحولت لالقى نظرة على تابوت ابى وامى .. وعندئذ وقع بصرى على تابوت ضخم قد سقط من الفجوة التى كان موضوعا بها ..
استولى على الفضول ..
كان تابوتا هائلا يتسع لرجل طوله ستة اقدام على الاقل ..
سألت نفسى : ترى من من اسلافى كان فى طول المردة والعمالقة ؟
واقتربت من التابوت لاقرأ اسم صاحبه .. ولكنى لم اجد على جداره اسما على الاطلاق .. بل رأيت عليه

عوضا عن الاسم رسم خنجر احمر اللون ..

دهشت .. واخذت اجيل الطرف حول هذا التابوت العجيب ، وعندئذ لفتنى شىء براق يتألق تحت ضـــوء الشمعة ..

انحنيت .. والتقطته .. وفحصته ..

يا الهى ..

كان عقدا من الماس الثمين .. لا يقل ثمنه عن بضعة آلاف من الجنيهات ..

ترى عقد من هذا ؟ واية امراة من اسلافى حملته معها الى مقرها الاخير ؟

وهنا فقط لاحظت ان ســـقوط التابوت الضخم من مكانه قد هشمه ..وان العقد لابد ان يكون قد ســـقط من بين الواح الخشب التى تهشمت ..

لابد ان اعرف سر هذا التابوت الغامض .

وضعت الشمعة فى الفجوة التى سقط منها التابوت وشرعت اعالج رفع غطاء التابوت الضخم .. ولم اجد فى ذلك شيئا من الصعوبة .. اذ الظاهر ان الغطـــاء كان قد سمر على عجل كما سمر غطاء تابوتى ..

رفعت الغطاء اذن .. ونظرت فى جوف التابوت .. وانا اتوقع ان ارى امامى جسدا باليا ، لم يبق منه غير هيكله العظمى ..

ولكن لشد ما دهشت عندما رايت امامى كومة من الحلى والمجوهرات .. والخواتم والساعات والماسات .. والاحجار الـــكريمة والقطع الذهبيـــة .. والانية الثمينة ..

جمدت فى مكانى لحظة ..

وجدتنى امام كنز ثمـــين تربى قيمته على اضـــعاف

الثروة التى وضعتنى فى طليعة أغنياء نابولى ..
ورأيت حول أركان التابوت نيفا وخمسين كيسا حملت حملت احدها .. فسمعت فيه رنين الذهب ..
ووجدت فضلا عن ذلك عدة حزم من الاوراق المالية قد ربطت بعناية شديدة .. واحيطت باغطية من الجلد الرقيق ..
دسست أصـــابعى بين القطع الذهبية والاحجـار الكريمة .. كان كل هذا الكنز ملكا لى .. نعم .. كان ملكا لى .. فقد وجدته فى مدفن أسلافى .. فهو اذن من حقى وحدى ..
ولكن ..
وهنا أخذت أفكر فى الامر مليا ..
كيف وضع هذا الكنز فى المدفن دون علمى ؟
عرفت الجواب فى الحال ..
لم يضع هذا الكنز فى ذلك المكان العجيب سوى بعض اللصوص وقطاع الطرق ..
يالله .. كيف لم أعرف ذلك منذ البداية .. بعد أن رأيت علامة الخنجر الاحمر على جدار التابوت ..
كان هذا الخنجر الاحمر هو شعار لص خطير يدعى « كارميلوبترو » .. اشـــتهر بعبثـه فى (باليرمو) واستهانته بالسلطات فيها ..
قلت أحدث نفسى :
ــ اذن فهذه هى غنائمك ياعزيزى كارميلو .. انهـا فى الحق فكرة فريدة ، اذ من ذا الذى يخطر له ببال أن يبحث عن كنوزك فى مدافن الموتى ، ومن ذا الذى يخطر له اذا رأى هذا التابوت أن يفتحه ليتحقق من محتوياته ؟ ولكنك قد خسرت الصفقة أيها العزيز .. ولا شك أن

من حق الرجل الذى يبعث حيا ويخرج من قبره ان يستولى على هـــذا الكنز جزاء متاعبـــه وجهوده .. والاهوال التى قاساها ..

انه كنز جمع بأسوا الوسائل .. ولكن من الافضل بغير شك ان يؤول الى من ان يبقى بين يديك ..

فكرت مليا فى هذا الاكتشاف العجيب .. ولم يبق لدى شك فى اننى وقعت مصادفة على بعض الاســلاب التى غنمها كارميلو بترو المخيف ..

ولابد ان يكون هذا الشـــقى قد نقل اســـلابه من (باليرمو) فى هـــذا التابوت .. ليجعلهـــا بمأمن من مطارديه ، وقد وضـع على التابوت شعاره الخـــاص ، لكيلا يسطو عليه احد ممن يحترفون حرفته ..

ولكن كيف استطاع هذا الشقى ان يدخل المدفن لابد انه استعان بمفتاح مزيف ..

واننى افكر فى كل هذا ، اذا بلفحة هـــواء تطفىء الشمعة ..

كانت معى علبة الثقاب ، وفى استطاعتى ان اشعل عود واضىء الشـــمعة ، ولـــكنى تريثت لحظـة بدافـع الدهشة والفضول ..

نعم ، ادهشتنى ان تهب لفحة هواء فى جوف مدفن لا توجد به منافذ قريبة ..

اجلت البصر حولى ، ولشد ما دهشت عندما رايت شعاع نور ينحدر من ثقب فى الفجوة الصخرية التى وضعت بها الشمعة ..

اقتربت من الفجوة .. ووضعت يدى فى الثقب .. فاحسست بالهواء يهب فى الخارج ..

اسرعت الى الشمعة فاضأتها .. واخذت افحص الثقب .. فوجدت انه نتيجة تفكك فى البلاط الذى يربط

احجار البناء .. ورأيت ان بعض القطع قد رفعت من مكانها واستعيض عنها باجزاء من جذوع الاشجار ..

دفعت هذه القطع الخشبية بيدى .. فسقطت فى الخارج .. وانفرجت امامى ثغرة تتسع لمرور الرجل.

مررت من هذه الثغرة .. وقلبى يخفق بشدة .. حتى ليكاد يثب من حلقى ..

ترى هل وقعت اخيرا على منفذ للخلاص ..

لم اكد امر من الثغرة .. حتى لفح النسيم وجهى .. فرفعت عينى .. ورأيت السماء فوق رأسى .. ثم رأيت العشب تحت قدمى .. ورأيت خليج نابولى على مرمى البصر ..

يا الهى .. اذن فقد خرجت من المدفن ..

صفقت بيدى .. وصرخت طربا وسرورا ..

اصبحت حرا .. حرا لا غيش .. وانعم بالحياة .. حرا لاعود الى احضان (نينا) الحسناء .. حـــرا لأعيش وأنسى ـ اذا استطعت ـ أهــوال تلك التجربة المزعجة ..

ولو سمعنى كارميلو بترو فى تلك اللحظة .. وانا استمطر عليه بركات السماء اذن لحسب نفسه قديسا لا لصا قاطع طريق ..

والواقع بماذا كنت ادين لهــذا المجــرم العظيم ؟

كنت ادين له بالحياة ، والحرية ، والثروة ..

لم يكن ثمة شك فى انه الذى احدث تلك الثغرة ليصل منها الى كنوزه كلما شاء ..

نعم ، ليس فى العالم كله انسان اضمر لمنقذه من الوفاء مثلما اضمرت لذلك الشقى ..

— ٥ —

ملأت رئتى من الهواء الطلق ، وكان اول ما فكرت

فيه بعد ان ضمنت حريتى ان اعود الى الكنز الذى اكتشفته فاضعه فى مكان امين ..

دخلت من الثغرة التى نفذت منها ، وتناولت من محتويات التابوت كيسين ، يحتوى احدهما على بعض القطع الذهبية ، ويحتوى الاخر على طائفة من الماسات والاحجار الكريمة ، فافرغت محتويات الكيسين فى جيوبى ، ثم احكمت اغلاق التابوت ، وجذبته الى ركن قصى فى المدفن ، ووضعت فوقه ثلاثة احجار ضخمة ..

ولما عدت الى المكان الذى تركت فيه الشمعة ، وقع بصرى على العقد الثمين الذى هدانى الى مكان الكنز ، فوضعته حول عنقى ، وفى نيتى ان اقدمه الى (نينا) لتزين به صدرها الجميل ..

ولما هممت بالانصراف ، تذكرت فجأة اننى حافى القدمين ، وان ثيابى قد اصبحت فى حالة يرثى لها ، بحيث بات يخيل للناظر الى اننى من اللصوص وقطاع الطريق ..

بحثت عن كيس نقودى ، ووجدت به اثنين وعشرين ليرة فضية ، وهو مبلغ يكفى لابتياع ثوب لائق استطيع ان ارتديه ، واسير به دون ان الفت الى الانظار ، واثير حولى الشكوك والريب ..

ولكن كيف استطيع الوصول الى حانوت الملابس ؟ اليس من الافضل ان ابقى فى مخبأى حتى يرخى الليل سدوله ؟ ولكن لا ، اننى لا ابقى فى تلك المنطقة دقيقة اخرى مهما كانت النتائج ، وبعد ، فان شوارع نابولى غاصة بشحاذين ارث منى ثيابا ، وابشع منظرا ..

وثبت من الثغرة ، واحكمت اغلاقها بقطع الخشب ، ولم اترك اى اثر يدل على انها فتحت حديثا ، ولم يبق على بعد ذلك الا ان انحدر فى الطريق الى المدينة ،

وهناك اعلن شخصيتى لمن يرتاب فى امرى ، واقصد توا الى قصرى ..

كان المدفن يقع على تل فى الضواحى فانحدرت فى الطريق الى المدينة ، وكان النهار قد انتصف او كاد ، فشعرت بحرارة الارض تشوى قدمى ، على اننى كنت فرحا مغتبطا فلم اقبالا الى هذه الالام الجثمانية التافهة التى لاتذكر فى شىء الى الاهوال التى احتملتها قبل ذلك ..

كنت اشعر بضعف ، وبالام فى راسى وعينى ، ولكنى كنت واثقا من ان عناية (نينا) وحبها ، سوف يبرئاننى من سقمى فى اقصر وقت ..

مررت فى طريقى بمركبة محملة بالعنب .. وقد غلب النوم سائقها .. فاغمض عينيه .. وترك الجواد يقطع الطريق فى هدوء وبطء ..

سال لعابى عندما وقع بصرى على الاعناب الناضجة وزاد شعورى بالظما والجوع .. فاقتربت من المركبة والقيت بيدى على كتف سائقها فاستيقظ الرجل من نعاسه وما كاد بصره يقع على ، حتى وثب من مكانه والقى بنفسه تحت قدمى وراح يصيح مستعطفا :

ـ رحمة بى .. ابق على حياتى ..

فضحكت .. وادركت ان الرجل قد حسبنى من قطاع الطرق ..

قلت له :

ـ انهض يارجل .. اننى لا اريد بك سوءا .. كل ما اطلبه هو بعض العنب وسأدفع ثمن ما اخذ ..

ونقدته ليرتين .. فنهض من مكانه وهو لا يزال يرتجف وينظر الى بعين الارتياب .. ووضع بين يدى

كمية من الفاكهة ومضى فى طريقه مسرعا دون ان ينطق بكلمة ..

واصلت السير وانا التهم العنب التهاما .. وانتهيت أخيرا الى أحد الشوارع الضيقة المظلمة الواقعة بالقرب من الميناء .. ورأيت حانوتا لبيع الثياب القديمة .. فقصدت اليه فى غير تردد ...

كان صاحب الحانوت رجلا متقدما فى السن ، مغضن البشرة وقد وجدته يدخن ويسجل ارقاما فى دفتر صغير بين يديه ..

رآنى الرجل مقبلا عليه .. فتظاهر بالانهماك فى عمله .. ولم يرفع عينيه الا عندما قلت له :

ـــ اننى قطعت مسافة طويلة سيرا على قدمى .. وقد فقدت بعض ثيابى وامتعتى فى حادث وقع لى فى الطريق .. فهل اجد عندك ثوبا يلائمنى ؟ ؟ اننى اطلب اى ثوب ..

فاخرج الرجل غليونه من فمه وسألنى :

ـــ هل تخشى الوباء ؟

فاجبته فى برود : لقد اصبت به ونجوت منه ..

فصعدنى بعينيه من قمة رأسى الى أخمص قدمى .. ثم قال وهو يضحك .. وكأنه يحدث نفسه اكثر مما يتحدث الى :

ـــ هذا حسن .. هو ذا رجل مثلى لا يخاف الوباء .. اننا لسنا جبناء ولسنا كغيرنا ممن يلعنون الاقدار التى بعثت به الينا ..

اننى ارحب بالوباء .. وابتاع الثياب التى ينزعونها عن جثث الموبوئين .. لاننى اجدها دائما فى حـــالة صالحة .. ولست اكلف نفسى عناء تنظيفها وتطهيرها . بل ابيعها فى الحال كما هى .. ولماذا لا افعل ذلك؟

جميع الناس يجب ان يموتوا .. وخير البر عاجله ..
فرمقته بنظرة اشمئزاز واستنكار .. وقلت له مقتضبا :

ــ هل تريد أن تبيعني ثوبا او لاتريد ؟ .

فهتف الرجل وهو ينهض من مكانه :

ــ طبعا .. طبعا .. ادخل الحانوت .. واختر لنفسك ما يروقك من الثياب .. ان عندى ما يلائم جميع الناس .. ويرضى كل الاذواق .. واذا اردت رايى .. فانني انصح لك بابتياع هذا الثوب .. انه من الاقمشة الانجليزية المتينة .. نعم .. كان صاحبه انجليزيا ثريا .. وقد ادركه الوباء .. فذهب الى ربه وقدح النبيذ في يده ..

فوضعت الثوب الذى قدمه الى جانبا وانا اقول :

ــ كلا .. اننى لا اكترث للوباء ولكنى ارجو ان تبحث لى عن ثوب آخر غير ثوب هذا الانجليزى الذى مات غريقا في النبيذ ..

فضحك الرجل وقال :

ــ حسنا .. حسنا .. لقد اعجبتنى ملاحظتك .. انك متقدم في السن ولكنك مرح .. وانا شخصيا اعجب بالرجل الظريف المرح ..

وراح يبحث لى عن ثوب آخر .. فوقفت ارقبه .. وافكر في معنى قوله « انك متقدم في السن » ..

لا شك ان الرجل ضعيف قوة الابصار .. او ضعيف الادراك استطرد وهو لا يزال يبحث عن ثوب :

ــ وبمناسبة الكلام عن الوباء .. اقول لك فى صراحة ان الكوليرا ارتكبت امس غلطة لا تغتفر .. اذ ذهبت بحياة شاب من اغنى اهل نابولى ..

* * *

كان شاباً وديعا .. شجاعا .. طيب القلب ، وكان يخيل للناظر اليه انه لن يموت ابدا .. وقد اصابته عدوى الوباء فى الصباح ، فدفن فى مقابر اسلافه فى المساء . وعندما انتهى الى هذا النبأ ، سخطت على الكوليرا لاول مرة فى حياتى ، سخطت عليها لانها اختطفت هذا الشاب الوديع الكونت فابيو رومانى .

* * *

فنظرت الى الرجل بحدة ولكن سرعان ما ملكت نفسى وتظاهرت بقلة الاكتراث...

قلت له :

ـ احقا تقول ؟ وبماذا كان يمتاز هذا الفتى حتى تستنكر عليه مصير غيره من الناس ؟ .

فحملق الشيخ فى وجهى بعينيه السوداوين الواسعتين واجاب :

ـ بماذا كان يمتاز ؟ يخيل الى انك لست من اهل نابولى .. بل ولم تطأ ارضها بقدمك من قبل .. الم تسمع باسم الكونت رومانى الفنى المشهور ؟ .

وكم كنت اود ان يبقى على قيد الحياة .. لقد كان شجاعا جسورا .. ولم يكن فى نابولى كلها من يضغن عليه ثراءه العريض .. ذلك لانه كان شديد العطف على الفقراء .. وكان يهب المساكين مئات من الليرات ..

انني رأيته مرارا .. ورايته فى حفل زفافه ..

وهنا تقلصت سحنة الشيخ فجاة واستطرد :

ـ انني امقت زوجته .. انها مخلوقة ناعمة بيضاء كالحية .. وكثيرا ما رأيتهما يتنزهان معا .. فكنت اسائل نفسى .. ترى لايهما تكون الغلبة والسيطرة على الاخر فى النهاية ... كنت اود من صميم قلبي ان

يستعين بى على قتلها .. ولكن شاءت الاقدار اخيرا ان يموت الشاب التعس .. وان ترث هى كل ثروته..
اصغيت الى حديثه فى فضول .. وعجبت لماذا يمقت زوجتي كل هذا المقت .. اللهم الا ان تكون كراهيته منصبة على الجمال والشباب بصفة عامة ..
وبعد .. فاذا كان قد رآنى مع زوجتى كما زعم .. فكيف حدث انه لم يعرفنى الان ؟ .
سألته :
ــ كيف كان شكل الكونت رومانى هذا ؟ هل كان طويل القامة او قصيرها.ابيض البشرةاو اسمرها..
ــ انه كان شابا جميلا يسر العين ان تراه .. كان فى مثل طولك وله مثل قامتك .. والفرق بينك وبينه انك غائر العينين .. وقد كانتله عينان سوداوان واسعتان .. وانك شاحب اللون بينما كان هو زيتونى البشرة .. يدل لونه على انه موفور الصحة والقوة والشباب .. وقد كان شعر راسه اسود اللون كأنه قطعة من الليل .. اما انت ياصاحبى .. فان شعر راسك ناصع البياض كالثلج ..
انكمشت فى مكانى ..
كانت كلماته اشبه بتيار كهربائى مر بجسدى ..
يا لله .. هل تغيرت الى هذا الحد ؟ وهل من الممكن ان تكون الليلة التى قضيتها فى المدفن قد تركت بى هذا الاثر ؟ .
شعر رأسى ناصع البياض كالثلج ! !
لم اصدق اذنى ، فلو صح ما قاله الرجل لانكرتنى (نينا) وروعها منظرى ، ولارتاب (جيدو) نفسه فى صحة شخصيتى ؟
بيد ان اثبات شخصيتى كان امرا هينا ، وبحسبى

ان اذهب بالقوم الى مدفن اسلافى ، وان ادلهم هناك على التابوت المحطم الخالى ..

استطرد الشيخ :

ــ نعــم .. نعــم .. انه كان شابا رشيقا ، قوى البنية ، وقد كان من بواعث سرورى وارتياحى دائما ان اراه ممتلئا قوة ..

كان فى مكنته دائما وفى كل وقت ان يطبق على عنق زوجته بأصابعه القوية .. وان .. وان يضغط ذلك العنق النحيل بقوة، فلاتقوى الشقية بعد ذلك على النطق بالاكاذيب ..

لكم كنت اريده على ان يفعل ذلك ، لو انه عاش لانتهى به الامر الى قتلها ، وانا لذلك جد حزين على موته ..

تمالــكت نفسى بعد جهد ، وقلت بصوت حاولت كثيرا ان اجعله يبدو هادئا :

ــ لماذا تمقت الكونتس رومانى الى هذا الحد ؟ هل اساءت اليك ؟ .

فتلاعبت على شفتيه ابتسامة خبيثة واجاب :

ــ ساقول لك لماذا امقت الكونتس .. نعم ساقول لك ذلك لانك رجل قوى .. وانا احب الرجال الاقوياء .. انهم يتعرضون فى بعض الاحيان لعبث النساء .. ولكنهم يستطيعون دائما ان ينتقموا لانفسهم .. وقد كنت رجلا قويا فى وقت ما .. ان الكونتس رومانى لم تسىء الى .. ولكنها ضحكت منى مرة .. كان ذلك عندما صدمتنى مركبتها على قارعة الطريق فاصبت من الصدمة برضوض شديدة .. ولكنى نظرت اليها وقت وقوع الحادث .. فرأيت شفتيها الحمــراوين تنفرجان عن ابتسامة .. وسوف يقول لك الناس ان

الكونتس تعرف كيف تبتسم ابتسامة بريئة طاهـــرة كابتسامة الاطفال الابرار ..

وقد حملنى القوم وانا بين الحياة والموت .. فلم تكلف نفسها عناء التريث لحظة للاستفسار عما اصابنى .. بل امرت سائقها بمواصلة السير ..

ولو كان زوجها معها لفعل غير ذلك .. اما هى .. فانها قنعت بالابتسام وعندئذ رايت الشبه العجيب ..

فسألته فى ضجر .. لان قصـــته ازعجتنى : اى شبه ؟ ؟

فأجاب :

ــ الشبه بينها وبين زوجتى .. نعم .. لقد عرفت بدورى معنى الحب : وتزوجت بالمراة التى احببتها .. كانت جميلة كالصباح فى يوم من ايام الربيع .. وكانت لها عينان كعينى الطفل البرىء حين ينظر اليك طالبا ان تقبله .. وحدث ان اضطرتنى ظروف عملى الى السفر .. فلما عدت وجدتها نائمة على صدر فتى من فتيان مدينة البندقية .. وقد رآنى الفتى فوثب على عنقى .. ولكنى تغلبت عليه وقهرته وطرحته ارضا ..

واستيقظت زوجتى .. ورأتنى جاثما فوق صدره .. فبلغ منها الرعب مبلغا لم تستطع معه ان تتكلم .. او تصيح مستيغثة ..

اما انا .. فقد نظرت الى عشيقها، وابتسمت، وقلت له : طب نفسا فاننى لن اقتلك ، ان الذنب ذنبها وحدها، فلو لم تشجعك لما نلت منها منالا .. كل ما اريده منك هو ان تبقى معنا لحظة ..

واشددت وثاقه ، ثم استللت خنجرى ، وهجمت على زوجتى فنظرت الى بعينيها الزرقاوين الساحرتين نظرة استعطاف ، ولكنى اغمدت الخنجر فى صدرها ..

. وتدفق الدم من قلبها الجريح .. حتى اصطبغ به ثوبها الابيض .. وصاح عشيقها فزعا وذعرا .. ولكنه لم يكن يملك أن ينجدها .. ولم يكن صياحه يجديها .. لانها اسلمت الروح فى التو واللحظة ..

اجتذبت الخنجر من صدرها .. وقطعت به وثاق الشاب .. وقدمت له الخنجر قائلا :

ـ احتفظ بهذا الخنجر لتذكرها دائما .. من المؤكد انها كانت ستخونك وتعبث بثقتك فى احد الايام كما خانتنى وعبثت بثقتى ..

فانطلق وهو يصرخ كالمجنون .. ودعا رجـــــال الشرطة فالقوا القبض على ..

وقدمت للمحاكمة طبعا .. وحوكمت بتهمة القتل .. ولكنه لم يكن قتلا ، بل كان جزاء وفاقا ..

وجد القاضى الظروف مخففة وفهم حقيقة موقفى ، ولا عجب فقد كانت له زوجة .

والان .. لعلك تفهم السبب فى اننى اكره الكونتس رومانى .. انها تشبه كل الشبه المراة التى قتلتها .. ولها مثل ابتسامتها البطيئة البريئة فأنا اكررلك القول بأننى جد آسف لموت زوجها . لانه لو عاش لفتك بها فى الوقت المناسب .. انا واثق من ذلك .

ـ ٦ ـ

اصغيت الى حديثه بقلب مثقل . ومرت بجسدى رعدة شديدة ..

كنت اعتقد ان كل من يرى (نينا) لابد ان يحبها .. وان يعجب بها ..

حقا انها اخطأت حين صدمت الشيخ بمركبتها ولم تتريث للاستفسار عنه .. وهو حادث لم تذكره لى

قط .. بيد اننى غزوت ذلك الى خفتها وطيشها لان من المستحيل ان تكون (نيتا) بلا قلب كما وصفها هذا الرجل ..

ازعجنى ان تكون قد خلقت لنفسها فى شخص هذا الشيخ الفقير عدوا يمقتها كل هذا المقت .. ولكنى لم احاول الاعتذار عنها .. لاننى لم اشأ ان افضح حقيقة امرى .

وهتف الرجل اخيرا :

هو ذا ثوب صائد اسماك يلائمك تماما .. وقد كان صاحبه الاول يماثلك فى الحجم ، وطول القامة وهو لم يهلك بوباء الكوليرا .. اننى ابيعك اياه باربع ليرات .

فاخرجت كيس نقودى وقلت للرجل :

ــ حسنا ، انت تطلب اربع ليرات ثمنا له ، ولكنى سأنقدك ست ليرات ، وعليك فى مقابل ذلك ان تذهب بى الى ركن فى حانوتك استطيع فيه ان استبدل ثيابى .

فذهب بى الرجل فى الحال الى مكان خاص داخل الحانوت ، وتركنى ومضى فاقتربت من المرآة المثبتة بالجدار ونظرت فيها .

شعرت فى الحال بمزيج من الذعر والدهشة والحسرة اذن فقد قال الشيخ حقا ، حينما وصفنى باننى متقدم فى السن .

لو اننى عانيت الاهوال عشرين عاما متوالية ، لما ترك بى ذلك من الاثر ما تركته اهوال الليلة الماضية .

كان وجهى شاحبا نحيلا ، وكانت عيناى غائرتين ، وقد اصبح شعر رأسى فى بياض الثلج .

فهمت عندئذ فقط لماذا هلع قلب الرجل الذى ابتعت منه العنب ، فقد كان منظرى مفزعا ومخيفا حقا ..

لم اعرف نفسى ، فترى هل تعرفنى زوجتى ويعرفنى

صديقى جيدو ؟
لا اظن
وآلمنى هذا الخاطر ، فاغرورقت عيناى بالدموع
بيد اننى ما لبثت ان ضبطت عواطفى وذهبت اقول لنفسى مشجعا :
ــ كن رجلا يافابيو ، اى فارق هناك بين ان يكون شعر راسك اسود او ابيض ؟ وما قيمة ما يصيب سحنة الانسان من تغيير وتبديل طالما قلبه هو هو لم يتغير ؟ ان (نينا) ستشعر بشيء من الاسى وخيبة الامل عندما تراك ، ولكنها لا تلبث ان تشفق عليك متى علمت بالاهوال التى قاسيتها ، وقبلة واحدة منها سوف تنسيك آلامك ، وترد عليك شبابك ..
ثم عمدت الى ثيابى فاستبدلت بها ثوب صائدالسمك
وعندما هممت بالرحيل ، انصرف ذهنى الى مايجب ان افعله ، وقررت فى الحال الا اقصد الى قصرى فى وضح النهار ، حتى لا ازعج زوجتى بمنظرى العجيب المفزع .
نعم ، قررت ان اتريث حتى تغرب الشمس ، ثم اقصد الى القصر ، وادخل الحديقة من باب خلفى ، وهناك اتصل بأحد الخدم ، وقد يسعدنى الحظ فأرى صديقى (جيدو) فأكل اليه مهمـــة اخطـــار (نينا) بالتدريج بنبأ خروجى من القبر وعودتى .
ومرت ساعات النهار بطيئة مملة ، فذهبت اضرب فى شوارع المدينة على غير هدى ، واينما ذهبت ، كنت ارى آثار الموت والدمار التى خلفها الوباء .
وخطر لى خاطر غريب وانا انتقل فى الطرقات
خطر لى ان ازور المطعم الذى حملنى الراهب اليه عندما اشتد بى المرض فى اليوم السابق ، فأخذت ابحث

عنه ، واهتديت اليه بعد بعض العناء .
وجدت (بيترو) فى ذات الركن الذى نقلونى اليه وبين يديه عويناته ينظفها .
رآنى الرجل فحيانى . وهو ينهض واقفا . فرددت تحيته . وطلبت اليه ان يأتى بقطعة خبز وبقدح من القهوة . ثم جلست الى مائدة قريبة . وشرعت اتصفح احدى الجرائد . سألنى الرجل وهو يعد لى القهوة :
ـــ انك قادم من رحلة طويلة ، اليس كذلك ايها الصديق ! فدهشت ولم اعلم مايجب ان اقوله ، ولكنى تذكرت اننى ارتدى ثياب صائد سمك ممن يجوبون البحار فى سفن الصيد ، فابتسمت له ، واطرقت براسى علامة الايجاب ، وسألته بدورى :
ـــ وكيف حال (الكوليرا) فى هذا البلد ؟ !
فهز الرجل راسه فى حزن ، واجاب :
ـــ بالله لا تحدثنى عنها ياسيدى ، انها تحصـــد الارواح ، وتفتك بالناس كما لو كان الانسان ذبابة وبالامس فقط ، يا الهى ، من كان يظن ذلك ؟
وتنهد وهز راسه بحزن مرة اخرى .
سألته .. وانا اعرف ماذا فى نيته ان يقول :
ـــ ماذا حدث امس ؟ اننى غريب عن نابولى .. ولا اعرف شيئا من الانباء .
فسألنى :
ـــ الم تسمع عن الكونت رومانى الغنى المشهور ؟
فهززت رأسى سلبا ، واطرقت فوق قدح القهوة .
وقال وهو يتنهد :
ـــ لا بأس .. لقد مات الكونت رومانى .. ولم يعد له وجود .. لكنه كان غنيا .. وغنيا كالملك كما يقول الناس ، اصابته عدوى بالوباء بالامس ، فحمله الراهب

كابريانو الى هنا ، وبعد خمس ساعات توفى ، ودفنوه قبل الغروب ، كان هذا الحادث اشبه بالحلم الخبيث .
فتظاهرت بعدم الاكتراث وقلت له :
— واية غرابة فى هذا ، ان الثروة لا ترد الموت عن احد ، والاغنياء والفقراء على السواء مصيرهم الى الفناء .
— هذا صحيح ، هذا صحيح ان ثروة الكونت رومانى لم تدفع عنه الموت وكذلك لم يدفع الفقر الموت عن الاب كابريانو التعس .
ذعرت . ونظرت اليه فجأة . ولكنى ملكت نفسى .
سألته : ـماذا تعنى ؟ ومن هو الاب كابريانو هذا ؟
— انه الراهب الذى حمل الكونت رومانى الى هنا ، لم يكن المسكين يدرى ان الموت يترصده كذلك
غاص قلبى بين جنبى ، واحسست بدوار
سألته : — هل مات ؟
— نعم ، مات كما يموت الشهداء ، فقد اصابته عدوى الوباء ، واعتقد انها اصابته من الكونت نفسه ، لانه لازمه حتى اللحظة الاخيرة ، وهو الذى وضع الصليب على صدره وحمل خاتمه وساعته وعلبة تبغه الى الكونتس رومانى ، وقد صمم على ان يقوم بهذه المهمة بأسرع ما يمكن وعلى أن تنبىء الكونتس بفجيعتها قبل ان يهبط الليل
فسألته فى فضول :
— ترى هل كان حزن الكونتس على زوجها عظيما ؟
فهز الرجل كتفه واجاب :
— ومن ادرانى ؟ لم يقل لى الراهب اكثر من انها سقطت على الارض واغمى عليها ، ولكن ذلك لايدل

على شيء فالنساء يغمى عليهن لاقل شيء .. ويفقدن الرشد اذا وقعت ابصارهن على فأر ...

اما الراهب المسكين ، فانه لم يكد يعود من مهمته حتى ظهرت عليه اعراض المرض ، وتوفى فى الدير فى صباح اليوم ، وقد حزنت لوفاته حزنا عظيما ، لانه كان رجلا كريما باسلا .

دفعت الطعام وابعدته عنى قليلا ..

خيل الى ان الطعام يخنقنى . ووددت من كل قلبى ان اطلق العنان للدموع التى صعدت الى عينى حزنا على الراهب الطيب القلب .

سألنى الرجل :

ـ الم تعجبك القهوة ؟ الا تجد شهية للاكل ؟

فأجبته :

ـ ان حديثك يذهب بشهوة الطعام ، ومن المحزن حقا ان يسمع الانسان بأفاعيل الوباء فى هذه المدينة الوادعة .

ولم أكد انطق بهذه الكلمة حتى لمحت رجلا يمر بباب المطعم .

عرفته فى الحال

كان هو بعينه صديقى جيدو فيرارى

هممت بأن اثب من مكانى والحق به ، ولكن شيئا فى مشيته وملامح وجهه امسكنى .

كان يمشى فى هدوء ، مشية ارتياح واطمئنان ، وبيده لفافة تبغ وعلى شفتيه ابتسامة ، وفى عروة ثوبه زهرة حمراء يانعة عرفت انها من زهور حديقتى .

حملقت نحوه وهو يسير ، فكان منظره صدمة عنيفة لشعورى ..

كانت تبدو عليه علامات السعادة والارتياح ، بل خيل

الى انه اسعد مما رأيته فى حياتى .. وذلك رغم علمه باننى — انا اعز اصدقائه واكرمهم عليه — قد مت ، ودفنت فى اليوم السابق فقط ..

نعـــم .. ادهشنى ، وازعجنى ان اراه بعد هذه النكبة يسير مبتسما كأنه منطلق الى حفلة راقصة ..

وادهشنى ان ارى فى عروة ثوبه زهرة حمراء .. وما كانت الزهور يوما من علامات الحداد ..

ولكنى ما لبثت ان هزأت بهذه الخواطر .. والواقع، اية غرابة فى ان يبتسم الانسان .. وان يضع فى عروة ثوبه زهرة حمراء ..

ان الانسان يجب الا يقدم حسابا عن ابتساماته .. اما الزهرة الحمراء فمن المحتمل ان تكون « ستيلا » قد قدمتها اليه فأخذها منها ارضاء لها ، ومن المحتمل كذلك أن يكون قد اقتطفها دون ان يشعر اثناء مروره بالحديقة ..

وشعرت بالارتياح الى هذا الاستدلال ، فلم احاول النهوض للحاق بصديقى جيدو ..

تركته يذهب غير عالم بوجودى ، وابقيت كل شىء الى المساء نعم ، فى المساء نستطيع أن نتفاهم ..

— ٧ —

هبط الليل اخيرا ، وهبت على المدينة لفحـــة من النسيم رفهت من الحرارة التى اصطلى الناس بها طيلة النهار فانحدرت فى الطريق الى قصر ال رومانى وانا ارتجف من فرط السرور والانفعال ..

وصلت الى القصر اخيرا ، فالفيت بابه الكبير مغلقا ، وكل شىء حولى هادىء ساكن ..

ولم يكن فى نيتى ان ادخل من هذا الباب .. فدرت

خول القصر حتى وصلت الى باب خلفى صغير .. يوصل الى الحديقة .. ويتفرع منه طريق تحف به اشجار البرتقال .. وقد كان السير فى هذا الطريق من احب الاشياء الى فى الايام الشديدة الحرارة ..

فتحت الباب بمفتاح معى .. وخطر لى ان ادعو « اسونتا » مربية ابنتى « ستيلا » فأطلب اليها ان تعد زوجتى للمفاجاة التى تنتظرها :

كنت فى اشد الشوق لان اضم « نينا » بين ذراعى .. وارى عينيها الساحرتين .. واشد على يد صديقى جيدو .. واقبل جبين ابنتى « ستيلا » .. نعم لابد ان آمر « أسونتا » بايقاظ « ستيلا » لاقبل وجهها الملائكى الصغير ..

ولكن ما هذا ؟ ..

وقفت فى مكانى كان يدا خفية سمرت قدمى بالارض ارهفت السمع ..

اليس هذا الصوت الذى وصل الى اذنى رنين ضحكة طروبة ؟ ..

ومرت بجسدى رعدة شديدة ..

عرفت ضحكة زوجتى .. وغاص قلبى بين جنبى ..

انها تستطيع اذن ان ترسل مثل هذه الضحكة وهى تعلم اننى مت .. وانتهيت الى الابد ..

ولمحت فجاة ثوبها الحريرى الابيض بين اشجار الحديقة ، فدفعتنى الغريزة الى الاختفاء ، وتواريت خلف احدى الاشجار ووقفت هناك موقفا استطيع ان ارى منه كل شىء دون ان يرانى احد ..

رنت الضحكة مرة اخرى ، وكان رنينها اشبه بخنجر مس قلبى ..

كانت طروبة ، كانت سعيدة ، كانت تسير بين

اشجار الحديقة فى ضوء القمر فى الوقت الذى كنت اعتقد فيه انها ستقبع فى احد اركان غرفتها لتبكى الزوج المحب المحبوب الذى فقدته ، ولتصلى من اجله..
نعم ، كنت اتوقع منها هذا ..
وفجأة خطر لى خاطر مزعج ..
ترى هل جنت ؟ .. ترى هل فقدت عقلها من هول الصدمة ؟
ارتجفت لهذا الخاطر ، وحركت فى حذر اغصان الشجرة التى تواريت خلفها ، وارسلت بصرى نحوها
وعندئذ رايت شخصين يسيران ببطء بين اشجار الحديقة .. احدهما زوجتى .. والثانى صديقى جيدو .. وهل ثمة غرابة فى هذا الم يكن « جيدو » آخا لى ؟ الم يكن من واجبه ان يعمل على التوفيه من احزان زوجتى ما استطاع الى ذلك سبيلا ؟
ولكن صبرا .. صبرا .. هل خاننى بصرى ؟ الا اراها تستند على ساعده ؟ او ..
افلتت من فمى آنه ألم وعذاب .. لم استطع ضبطها ..
يا الهى ، ليتنى كنت مت ، وليت تابوتى لم يتحطم وليتنى بقيت فى مدفن اسلافى فى امان ، اذ هل يذكر الموت ، وهل تذكر الاهوال التى عانيتها بجانب الالم الذى مزق قلبى فى تلك اللحظة ؟
ان ذكرى تلك اللحظة لا تزال تشوى ذهنى ، وتلتهم قلبى ، ولست ادرى كيف استطعت ان اضبط ثورة الجنون والغضب التى عصفت فى صدرى آنئذ ، وكيف ارغمت نفسى على البقاء مختبئا ، متواريا ، دون ان تبدر منى بادرة تلفتهما الى ..
شهدت المهزلة التعسة التى كانت تمثل امامى

وشهدتها الى النهاية ..

شهدت شرفى يمزق بين ايدى احب الناس الى ، واكرمهم على ..

اقترب جيدو وزوجتى حتى اصبحا منى بحيث استطيع ان ارقب كل حركة من حركاتهما ، واسمع كل همسة يهمسانها ..

وقفا على بعد ثلاث خطوات منى ، وساعده حول خصرها ، وساعدها حول عنقه ..

القت براسها على صدره فى هدوء وطمأنينة كما طالما القت براسها على صدرى ..

كانت ترتدى ثوبا ابيض ناصع البياض . لا يرى فيه اى لون آخر ، غير لون الزهرة الحمراء التى كانت تزين صدرها ، فوق القلب ..

زهرة حمراء ، فى لون الدم ..

نعم ، كان يجب ان يحل الدم محل هذه الزهرة ، ولكن اين لى الخنجر الذى استطيع ان اغمده فى قلبها ، فى موضع الدبوس المرصع الذى كانت ماساته تتألق تحت اشعة القمر ؟ ؟

حملقت نحوها وأنا مشدوه ..

كانت جميلة .. واجمل مما رايتها فى يوم زفافها .. وليس على وجهها الساحر اى اثر من آثار الحزن والهم ..

كانت عيناها السودوان تسيلان عذوبة وسحرا ، وشفتاها الحمراوان اشبه شىء بشفتى طفل برىء سعيد ..

تكلمت ..

يا الهى .. لقد بعث صوتها الموسيقى قلبى من مرقده ..

قالت له بصوت رقيق .. وبلهجة الحالم المتلذذ بحلمه :

ــ ماذا كان يحل بك يا جيدو ، ايها الاحمق ، اذا لم يكن فابيو قد زال هكذا فى الوقت المناسب ؟

انتظرت جواب جيدو فى قلق ..

ضحك وقال :

ــ كان يتعذر عليه ان يكتشف الحقيقة . انك كنت على جانب عظيم من البراعة ، وبعد فان صلفه وخيلاءه قد وفر عليه آلام الغيرة ، انه كان شديد الاعتداد بنفسه ، حتى لم يكن يتصور ان فى الوجود رجلا آخر يستطيع ان يفوز بك ..

* * *

وهنا تنهدت زوجتى الطاهرة النقية ، زوجتى التى تشبه فى طهارتها ونقاوتها قطرات الندى على اوراق الزهر .

تنهدت وقالت :

ــ يسرنى انه مات ، ولكنك احمق ياعزيزى جيدو ، لم يعد فى مقدورك الان ان تكثر من زيارتى ، فان الخدم سوف يتكلمون ، اضف الى ذلك اننى يجب ان ارتدى ثياب الحداد ستة اشهر على الاقل ، وثمة اعتبارات اخرى لا يجب ان تغفلها ..

* * *

وكان جيدو يعبث بالعقد الذى يزين صــدرها ، فانحنى وقبل صدرها فى الموضع الذى تتدلى عنده الماسة الوسطى فى العقد ..

ــ قبل ذلك الموضع مرة اخرى ياصديقى العزيز ، وقبله مرة ثالثة ورابعة فانه مباح للجميع ، وقبله اكثر واكثر او اقل لاتعنى شيئا ..

قال لها :

ــ كان المحزن حقا أن يموت فابيو أيتها الحبيبة ، ان دوره فى حياتنا سهل ، كان شريكى فيك ، ولكنه كان شريكا غير مزعج ..

* * *

وهنا تحطم غصن جاف تحت قدمى ، فذعرت زوجتى ، واجالت الطرف حولها .

قالت اخيرا بلهجة عصبية :

ــ صه ، انه دفن بالامس فقط ، ويقولون ان اشباح الموتى ..

وصمتت لحظة ، ثم استطردت :

ــ لقد كان هذا المكان من الحديقة هو مكــانه المفضل ، ليتنا لم نأت الى هنا

وصمتت للمرة الثانية ، ثم استطردت :

ــ يجب الا تنسى كذلك انه كان والد ابنتى

فأجابها جيدو بحدة :

ــ يا الهى ، ومن قال لك اننى نسيت ، من قال لك اننى لم العنه ، ولا العنه حتى الساعة على كل قبلة اختلسها من شفتيك ؟!

اصغيت وانا مشدوه !!

هاهى ، ذى نظرية جديدة فى قوانين الحياة الزوجية ،

فالازواج اذن لصوص يختلسون القبلات من شفاه زوجاتهم ، اما العشاق ، فالقبلات حق حلال لهم .. !

حنانيك ياصديقى العزيز ، يا أعز من أخي !

سألها وهو يعبث بجدائل شعرها :

ـــ الا حدثيني بالله ، لماذا اقترنت به ؟

فهزت كتفيها واجابت :

ـــ لماذا ؟ لانني كنت متعبة من الحياة في الدير ، ثم انه كان غنيا جدا، وكنت فقيرة جدا ، وانا لا اطيق الفقر والاملاق ، وبعد فانه احبني ..

وهنا لمعت عيناها بخبث واستطردت : نعم ، انه كان مجنونا بحبي ..

ـــ وهل كنت تحبينه ؟

فقلبت شفتها باحتقار واجابت :

ـــ اظن انني احببته لمدة اسبوع او اسبوعين ، كما تحب النساء ازواجهن ، والواقع ، لماذا تتزوج المرأة .. انها لا تتزوج طمعا في الحب ولكنها تلوذ بزوجها لمكانته، ومركزه ، وثروته والنعمة التي يستطيع ان يغدقها عليها ، وقد وفر لي فابيو كل ذلك كما تعلم ..

فقال بلهجة تنم عن الحسد :

ـــ واذن فانك لن تفيدى من زواجك بي شيئا ..

فضحكت .. ووضعت اصابعها التي ترصعها لخواتم الماسية فوق شفتيه .. وقالت :

ـــ طبعا .. ولكن هل قلت لك انني سأتزوجك ؟ انني اعجب بك كعاشق .. ولكني لست واثقة من انك ستكون خير الازواج .. وانا فضلا عن ذلك أريد

الاستمتاع بالحرية .. اريد ان افعل ما اشتهى .. وان ..

ولكنها لم تتم عبارتها .. فقد جذبها « جيدو » الى صدره بقوة .. وقال لها بصوت اجش :

ــ اصغى الى يا « نينا » .. اننى لن اسمح لك قط بان تخدعيننى .. او تعبثى بى .. لقد عانيت واحتملت كثيرا من اجلك وعلى يديك .. والله عليم بذلك ..

فقالت وهى تمر بيدها فوق شعر راسه :

ــ انك احمق ياجيدو .. انك شديد الغيرة .. لقد قلت لك مرارا وتكرارا اننى احبك .. ولا احب احدا سواك ..

وواصلا السير فى هدوء .. كأنقى الناس ضميرا .. واصفاهم سريرة ..

اخذت ارقبهما وهما يبتعدان .. الى ان غاب عن ناظرى ثوب زوجتى الابيض ..

ذهبا .. ولم يكن من المنتظر أن يعودا الى الحديقة فى تلك الليلة ..

وثبت من مخبأى .. ووقفت فى المكان الذى كانا يتناجيان عنده .. وحاولت ان احمل حواسى على تصديق ما رات عيناى ..

نعم ، لقد رفضت حواسي ان تصدق ان هذه المراة هى زوجتى .. وانها ام ابنتى ..

رفضت ان تصدق ان « نينا » ، ذات الوجه البرىء والابتسامة الملائكية قد ارتضت حقا عن شرفها ، الخزى والعار ، وعن نقاوتها ، الفضيحة والاوحال .

ولكن ماذا يجب عمله الان، نعم، ماذا يجب عمله ، ماذا اصنع بها ، وبه .. ذلك الشيطان الباسم ..

هتف بى هاتف :

ـــ اذهب واقتلها ..

ولكن ، هل يليق براس اسرة رومانى ان يعرف بين الناس بانه قاتل ! ..

كلا ؟ هناك وسائل عديدة للانتقـــام ، وفقط يجب التفكير ، واختيار الوسيلة الفعالة ..

جلست على جذر احدى الاشجار ..

كانت أفكارى مضطربة .. كافكار رجل محموم ..

وضعت يدى فى جيبى باحثـــا عن شىء اجفف به العرق المتصبب على جبينى .. وعندما فعلت ذلك .. مست يدى الاحجار الكريمة والماسات والقطع الذهبية .. فتذكرت محنتى فى المدفن وتذكرت نضالى المخيف فى سبيل الحياة والحرية ..

الحياة والحرية .. ؟ ما حاجتى بهما الان .. ان لم يكن ولكن اى نوع من انواع الانتقام ؟

ليس هناك من يحتاج الى .. وقد اصبح المكان الذى كنت اشغله فى الحياة شاغرا .. او ان هنـــاك من احتله عوضا عنى .. اما ثروتى فقد آلت بحكم وفاتى المزعومة وبحكم وصيتى الى الزوجة التى خانتنى وتخوننى ..

على اننى لم اكن بحاجة الى المال .. فعندى منه الان الشىء الكثير ، عندى اسلاب « كارميلو بترى » وهى كافية لان تجعل منى رجلا غنيا بكل ما فى الكلمة من معنى ..

تذكرت هذه الثروة .. فتدفق الدم حارا فى عروقى المال ..

كل شىء يستطاع بالمال .. حتى الانتقام يشرى بالمال .. ولكن اى نوع من انواع الانتقام ؟

هذا ما يجب ان افكر فيه ..
اريد ان يكون انتقامى فذا فريدا .. قاسيا تاما
فكرت فى الامر مليا .. وانصرف ذهنى المضطرب الى الحديث الذى دار بينى وبين بائع الثياب .
قال عنى الرجل اننى متقدم فى السن .. هذا صحيح .. فقد رايت لى فى المرآة وجه شيخ متعب مكدود .. حتى كدت الاعرف نفسى وحتى ان الرجل لم يعرفنى .. بل ان بيتر صاحب المطعم الذى رآنى عن كثب فى اليوم السابق لم يعرفنى
واذن فلن يعرفنى احد ممن سبق لهم ان رأونى ..
وفجأة .. بتفتق ذهنى عن خاطر .. عن فكرة للانتقام، فكرة جريئة مبتكرة مخيفة .
يا لله .. كيف خطرت لى هذه الفكــرة .. واى شيطان .. بل اى ملاك اوحى بها الى ؟
واننى لا ازال اعالج فكرة الانتقام واحيك خيوطها واطرافها .. اذا بباب القصر يفتح .. واذا بصديقى جيدو ينصرف
ابتسمت .. عندما ادركت مبلغ دهاء زوجتى
كانت تعلم بغير شك ان هناك مظاهر يجب الحرص عليها .. والافتنان فى اجادتها .. ومن هذه المظاهر ان تدع عشيقها يبرح المنزل تحت ســمع الخــدم وابصارهم .. حتى لا يتقول عنها متقول .. وفى استطاعة عشيقها السعيد ان يعود اليها بعــد ذلك من باب خلفى ..
انصرفت من باب الحديقة .. وسرت فى اثره .. دون ان اوسع الخطى ..
انحدر فى الطريق الى المدينة .. وهو يمشى مشية المتكاسل ولفافة التبغ بين اصابعه ..

لمحت فى اصبعه خاتما زمرديا .. عرفت فى الحال انه احد خواتمى ..

ادركته ومررت به فرمقنى بنظرة سريعة .. ولكن شيئا فى مظهرى لم يلفت نظره .

تملكتنى رغبة جارفة فى ان اعود اليه .. وانقض عليه .. وانشب اظافرى فى عنقه .. ثم اطأ وجهه الجميل الخبيث تحت قدمى .. ولكنى عدت فملكت نفسي .. وكبحت هذه المشاعر الوحشية الخطيرة ..

رأيت من الافضل ان اتريث .. وان اترك لانتقامى ان ينضج على مهل بنار الحقد الذى يعتمل فى نفسى ... اما الانتقام السريع فهو اشبه بالفاكهة الفجة .. التى لا تترك فى فم متذوقها غير المرارة ..

تركته آمنا .. ليستمتع بتأملاته العذبة ما شاء له ان يستمتع ، وعدت ادراجى الى المدينة .. وقصدت الى احد الفنادق حيث استأجرت غرفة للمبيت ..

ومن عجب اننى استغرقت فى الحال فى نوم عميق لا تتخلله احلام ..

كان مرضى .. والمتاعب والاهوال والاحزان قد انهكت قواى .. فاستولى على النعاس حالما وضعت راسى على الوسادة .

- ٨ -

نهضت مبكرا فى صباح اليوم التالى .. وانا اشد عزما على تنفيذ فكرة الانتقام مما كنت فى المساء ..

كان مشروع الانتقام قد نضج فى ذهنى واختمر .. ولم يبق الا ان اعمل على تنفيذه .. ببطء .. وثبات ..

ابتعت مصباحا .. ومطرقة ومسامير .. وقصدت الى مدفن اسرتى ..

وبعد ان اجلت الطرف حولى لاستوثق من انه لا يوجد من يرقبنى .. نفذت من الثغرة التى اكتشفتها فى اليوم السابق ، فوجدت كل شىء فى داخل المدفن كما تركته ، فقصدت الى التابوت الذى اخفى فيه « كارميــلو » اسلابه ، وفتحته وتناولت حزم الاوراق المالية ، وهى بضعة آلاف من الفرنكات ، فوضعتها فى جيوبى ، وتحت ثيابى ، ثم استعنت بالادوات التى جئت بها على اغلاق التابوت باحكام ..

فعلت ذلك بسرعة .. اذ كان فى نيتى ان اغادر نابولى فى الحال .. وان اغيب عنها اسبوعين او اكثر

وعندما هممت بالخروج ، وقع بصرى على تابوتى المحطم .. وخطر لى ان اعيد غلقه ..

ولكن لا .. من الافضل ان اتركه على حاله ، سيكون انتقامى اهول واغرب اذا تركته كذلك

وبعد ظهر ذلك اليوم ، ابحرت باحدى السفن قاصدا الى « باليرمو »

كانت تلك الرحلة هى المرحلة الاولى من مراحل الانتقام ، ومن عجب اننى وصلت الى « باليرمو » فى ذات اليوم الذى وفق فيه رجال البوليس الى القبض على « كارميلو بترى »

وقد اسفت لوقوع منقذى فى ايدى مطارديه ، ولكنى شعرت بالارتياح الى انه لم يعد لى من ينازعنى ملــكية الثروة الطائلة التى وقعت عليها فى مدفن اسلافى

ذلك لانه لم يكن ثمة شك فى ان كارميلو سيكون مصيره الاعدام وهو ما حدث فعلا ..

وكان اول همى عندما وصلت الى « باليرمو » اننى ابتعت طائفة كبيرة من افخر الثياب .. وافهمت صاحب المتجر اننى جئت الى باليرمو فى رحلة على ظهر (يختى)

الخامس .. فصدقني الرجل على الفور ..
وامرته بأن يبعث الى بما اشتريته باسمى « الكونت سيزار اوليفا » وهو الاسم الذى انتحلته لنفسى .. وذكرت له عنوان افخر فندق فى المدينة .
ثم قصدت الى الفندق المذكور .. واستأجرت فيه جناحا خاصا ..
وفى اليوم التالى ، ذهبت الى احد المصارف الكبرى فى المدينة واودعت فيه ثروتى باسمى المستعار ، وعكفت بعدئذ على اعداد العدة لانتقامى .
كان اول ماعنيت به ان اتنكر بحيث لايبقى اى شبه بينى وبين المرحوم فابيو رومانى .
كان شاربى قد ادركه المشيب كشعر راسى، فاطلقت لحيتى فنبتت بيضاء كشعر راسى وشاربى ، بيد ان هناك شيئا لم استطع تغييره وذلك هو لون عينى ..
والواقع ، ان عينى استردتا بريقهما القديم ، حتى لم يعد من المتعذر على احد الا يعرفنى بهما ، فماذا اصنع ؟
فكرت .. وقررت ..
لم يكن ايسر على من ان اتصنع ضعف البصر ، وان أضع على عينى عوينات سوداء سميكة .
ابتعت العوينات فى الحال ، واستخدمتها ، ثم نظرت فى المرآة ، وسرنى ان اجد العوينات قد اوفت بالغرض واحدثت فى سحنتى الانقلاب المطلوب .
اصبح منظرى ، بتلك العوينات السوداء ، وذلك الشعر ، واللحية القصيرة ، منظر رجل محترم فى الخامسة والخمسين من عمره ، كل عيبه انه ضعيف البصر ..
كان يتعين على بعد ذلك ان اغير صوتى ..

كان صوتى عادة رنانا ، وكنت ــ كسائر أهــل ايطاليا ــ اقرن الكلام بشارات وحركات على سبيل التوكيد ، فأخذت اروض نفسى على التحدث فى بطء وهدوء وبرود ، وساعدنى على النجاح وجود رجل انجليزى فى الجناح المجاور لى بالفنــدق ، فاهتممت بتقليد حركاته وصوته ..

كان هذا الرجل كتلة ثلج ، ولكن حركاته ومشيته .. وصوته ، واساليبه فى الحديث كانت تدل على نبــل محتد ، وكرم خلق ، وثقافة فوق المستوى العادى .

نجحت فى تقليد هذا الانجليزى الى ابعد حدود النجاح، حتى وصفنى احد الخدم لزميل له بأننى « كالدب الابيض »

ولما اطمأننت اخيرا الى نجاحى .. خطوت الخطوة الثانية فى انفاذ خطتى .. فبعثت الى صاحب الجريدة الكبرى فى « نابولى » برسالة اودعتها مائة لبرةوطلبت اليه فيها ان ينشر بجريدته النبأ التالى :

* * *

« علمنا ان الكونت سيزار اوليفا .. وهو نبيل عريق فى النبل قضى عشرات الاعوام بعيدا عن وطنه .. قد عاد اخيرا الى ايطاليا بعد اذ احرز ثروة طائلة فى الاعمال التجارية فى الخارج .. ويسرنا ان نعلن انه قــرر الاقامة فى « نابولى » ولا شك ان الطبقة الممتازة فى هذه المدينة سترحب بهذا النبيل الكريم .. وستحله بينها المحل الجدير بنبل محتده .. وسعة ثروته » ..

* * *

وقد اجابنى صاحب الجريدة الى ماطلبت .. وبعث

الى نسخة من العدد الذى نشر به هذا النبــأ .. وارفقها بخطاب شكر ..

— ٩ —

عدت الى نابولى فى الاسبوع الثالث من شــهر سبتمبر .. وكان الجو قد اعتدل .. وخفت وطأة وباء الكوليرا .. وتنفس الناس الصعداء .. وبدأت الحياة تدب من جديد فى تلك المدينة الحزينة ..

احتجزت لنفسى جناحا كبيرا فى افخر فنادق المدينة .. وفعلت كل ما من شأنه ان يشعر القوم باننى املك ثروة لا تنضب .. فكان خدم الفندق يتزاحمون على اجابة مطالبى كما لو كنت احد الملوك .

وفى مساء يوم امتاز بصفاء جوه ، ورقة سمائه ، قصدت الى المقهى الذى اعتدت ان اختلف عليه ، عندما كنت اعرف باسم فابيو رومانى .

كان جيدو فيرارى يتردد على هذا المقهى كذلك ، ولهذا كنت واثقا من اننى سألقاه .

وجدت المقهى غاصا بالزبائن ، وقد داروا حــول الموائد يرتشفون الخمر ، او الالبان المثلجة ، او القهوة، ويهنئون بعضهم بعضا بما ترامى اليهم من الانباء عن قرب زوال الوباء وجلائه عن المدينة .

اجلت فى المكان نظرة سريعة ولمحت فى الحال ضالتى المنشودة ..

لمحت صديقى وألد اعــدائى جالســا أمام احــدى الموائد وهو يدخن فى هدوء وطمأنينة ، وبين يديه احدى الصحف .

جلست على مائدة قريبة من مائدته فرفع بصره عن الجريدة التى كان يقرأها ، ونظر الى بقلة اكتراث ، ثم

عاد الى مطالعة الجريدة ..

دعوت خادم المقهى ، وطلبت اليه ان يأتينى بقدح قهوة ، ثم اشعلت لفافة تبغ ، واخذت ادخن ..

ولابد ان يكون شيئا فى منظرى قد لفت نظر جيدو ، أو اثار فضوله أو اهتمامه ، لأنه نظر الى خلسة مرة او مرتين ..

قلت لنفسى : ها قد بدانا ..

وجاءنى الخادم بقدح القهـوة ، فنقـــدته الثمن ، مضاعفا .. ثم سالته بذلك الصوت الخشن الباردالذى روضت نفسى على النطق به :

ـ اظنك تعرف نابولى حق المعرفة ؟

فأجاب على الفور : نعم ياسيدى ..

فقلت بصوت مرتفع :

ـ هل تستطيع ان ترشدنى الى قصر الكونت فابيو رومانى ، الغنى المعروف فى هذه المدينة ؟ .

اصبت الهدف ، لان (جيدو) رفع راسه فجأة كمن عضه ثعبان ، ثم عاد فاعتدل فى جلسته واصاخ السمع . اما الخادم فانه حرك راسه وكتفيه بشيء من الاسف . واجاب :

ـ انه توفى ياسيدى ..

فقلت متصنعا الدهشة :

توفى وهو ما يزال فى شرخ الشباب ؟ هذا مستحيل ..

ـ انه ذهب ضحية الوباء الذى لم يكن منه واق ولم يرحم الشيوخ او الشباب ، الاغنياء او الفقراء ..

فدفنت راسى بين يدى كما لو كان الخبر قد ازعجنى وزلزل اعصابى ، ثم قلت بلهجة الاسف :

ـ واسفاه لقد جئت متأخرا اذن ، كنت صـديقا لابيه ، ولكنى غادرت هذه البلاد منذ سنوات عدة

وكنت اود من كل قلبى ان ارى فابيو . الذى عرفته طفلا . الم يبق احد من اقاربه على قيد الحياة ؟ هل كان متزوجا ؟ .

ــ نعــم ، نعــم ياسيدى ، انه كان متزوجــا ، والكونتس رومانى تقيم فى قصر آل رومانى ، ولكنى اعتقد انها لا تستقبل احدا منذ وفاة زوجها ، انها صبية فى مقتبل العمر، وجميلة كالملائكة، وقد رزقت من زوجها طفلة .

وهنا بدرت من (جيدو) حركة جعلتنى انظر الى ناحيته

رفع قبعته باحترام .. وقال لى فى ادب :

ــ عفوا ياسيدى .. ارجو معذرة عن تطفلى .. لقد كنت اعرف الكونت رومانى كما لا يعرفه انسان آخر فى نابولى .. ويسرنى ان ادلى اليك بما تطلب من معلومات ..

قال هذا بذلك الصوت الموسيقى العذب .. الذى طالما احببته ..

لم اجبه على الفور .. فقد شعرتُ بالانفعال يكاد ان يخنقنى .

رفعت قبعتى ببطء ردا على تحيته واجبته :

ــ شكرا لك ياسيدى .. والف شكر .. انكتسدى الى يدا اذا تفضلت بارشادى الى أحد من أقارب هــذا الشاب النبيل التعس .. لقد كان والده عزيزا على كأخى .. ولكن دعنى اولا اقدم اليك نفسى ..

وقدمت اليه بطاقتى .. فتناولها .. وما كاد يقرأ اسمى .. حتى رمقنى بنظــرة يمتزج فيها الاحترام بالدهشة وهتف :

. الكونت سيزار اوليفا ! ؟ اننىسعيد جدا بمقابلتك

يا سيدي .. لقد اعلنت الصحف جميعا انباء قدومك ..
وذكرت الكثير عنك .. ومهدت لك الطريق الى تصدر
المجتمع الراقى فى هذه المدينة ، فأهلا بك وسهلا ..
انما يؤسفنى فقط انك فوجئت هنا بنبأ ارجو ان يكون
آخر ما يحزنك خلال اقامتك بين ظهرانينا ..

ومد الى يده مصافحا ..

مرت بجسدى رعدة شديدة ..

يا الهى .. هل استطيع ان اتناول هذه اليد ؟ .

نعم .. يجب ان اتناولها .. اذا كنت اطمع فى اتقان
دورى

تصنعت الابتسام .. ومددت اليه يدى فى تردد ..
فشد عليها بحرارة ..

ولم يلاحظ (جيدو) ترددى ولم يلاحظ انفعالى ..
ثم اقترب منى بمقعده وقدم الى بطاقته وهو يقول :

ـــ اسمى جيدو فيرارى .. ومهنتى رسام .. وانا
فى خدمتك ياسيدى الكونت .. سنتبادل الانخاب احتفالا
بهذا التعارف .

فاطرقت برأسى ولم اجب .. ونادى (جيدو)
الخادم .. وطلب كاسين من الشراب ..

قال : ارى انك تدخن .. هل تسمح لى بان اقدم
لك لفافة من التبغ الذى ادخنه .. انه افضل انواع
التبغ ..

واخرج من جيبه علبة تبغ فضية .. رايت عليها
شعار اسرة رومانى ، والحروف الاولى من اسمى ..

كانت علبتى طبعا .. وقد راقنى ان اراها .. فان
بصرى لم يقع عليها منذ يوم وفاتى ..

تناولت العلبة من يده .. واخذت اقلبها بين اصابعى
.. ثم قلت :

ـ انها علبة بديعة حقا .. وآيــة من آيات فن الصياغة ..

فاجاب وهو ينفث من فمه سحابة من الدخان :

ـ انها علبة صديقى المرحوم الكونت فابيو .. وقد وجدها فى جيبه الراهب الذى اهتم بدفنه فحملها الى زوجته .. وكان ..

فقاطعته : وقد اهدتها اليك الكونتس لتذكــر بها صديقك الذى فقدته ..

ـ نعــم ..

واعدت اليه العلبة وانا ابتسم ..

سألته : هل الكونتس فى مقتبل العمر ؟ .

فأجاب فى حماسة :

ـ نعم .. انها فى مقتبل العمر وجميلة كالزهرة وفى اعتقادى ان الشمس لم تطلع على امرأة اجمل منها ..

لو لم تكن شيخا ياسيدى الكونت ، لما حدثتك عن جمالها ، ولكن شعرك الابيض يحملنى على الثقة بك ..

لقد كان فابيو صديقى ، وكان فتى طيب القلب ،ولكنى برغم ذلك اؤكد لك انه لم يكن جديرا بالمــرأة التى تزوجها ..

فأجبته ببرود : احقا تقول ؟ اننى عرفته فقط وهو صبى وكان يخيــل الى انه وديع دمث الخلق واســع الصدر سخى اليد ، وكان ابوه يعتقد أنه سينشأ فتى مستقيما ، وقد ترامت الى وانا فى غربتى انباء عن استقامته ، وحكمته فى تصريف شؤونه ، الم يكن محسنا كريما ؟ الم يكن شغوفا بالقراءة ، وبابسط انــواع المسرات ؟ .

فهز جيدو كتفيه .. واجاب :

ـ انه كان كذلك حقا .. بل كان فى طليعة افاضل هذه المدينة التى لا تعرف الفضائل .. كان فيلسوفا .. شديد الاعتداد بنفسه .. ولكنه كان كذلك .. مغفلا..

فغلى الدم فى عروقى .. واشتد بى الانفعال .. ولكنى ملكت نفسى بسرعة .. وتذكرت دورى فى المأساة التى وضعت كل فصولها ومناظرها .. وانفجرت ضاحكا ..

هتف : احسنت .. انك فتى من احدث طراز .. فانت لا تحب اصحاب الفضيلة التى لا قيمة لها فى هذا الزمن .. ها .. ها .. اننى معك فى هذا يافتى .. فالفضيلة اصبحت من مرادفات التغفيل فى هذا العصر .. نعم .. نعم .. هذا ما فهمته من تجاربى فى الحياة .. دعنى اشرب نخب صحتك ياسنيورفيرارى .. ولنكن اصدقاء منذ الان ..

ادهشه تبسطى معه .. ولكنه ما لبث ان شاركنى فى الضحك .. وطلبت الى الخادم ان يأتينا بكاسين آخرين ..

سألته مستأنفا الحديث :

ـ وذلك التعس فابيو .. هل كان موته فجائيا ؟ .

فاعتدل فى مكانه واجاب :

ـ نعم .. وقد فهمت مما قيل لى انه استيقظ مبكرا .. وخرج من القصر لترويح النفس .. فصادفه غلام مصاب بالكوليرا .. فابى عليه تفكيره المحدود .. وعقله الضيق .. وشعوره الفج الا ان يواسى الغلام .. فاسرع كالمجنون فى طلب طبيب من المدينة .. ولكنه وجد راهبا ولم يجد طبيبا .. وبينما كان الاثنان فى طريقهما إلى القصر لنجدة الغلام الذى كان قد توفى فعلا .. اصيب فابيو بالطاعون .. ومات وهو يصب

اللعنات على من يحاول نقله الى القصر .. ولعل هذا هو افضل ما صنع فى حياته .. فقد كان يخشى بطبيعة الحال ان تنتقل العدوى الى زوجته وابنته ..

ــ كم عمر ابنته ؟ .

ــ انها فى العام الثالث .. وهى طفلة هادئة .. من الطراز القديم مثل ابيها ..

مسكينة انت يابنتى ..

استحالت جميع مشاعرى الى اشمئزاز وبغض لهذا المنافق الذى طالما دلل (ستيلا) وتظاهر بحبها ..

انه بطبيعة الحال لم يقل ذلك الا لانه يعرف رأى زوجتى فى ابنتها ..

وقد أدركت فى التو واللحظة ان هذه الابنة التعسة ستصبح .. إن لم تكن قد اصبحت فعلا .. شيئا مهملا .. لا تجد فى منزل ابيها شيئا من العطف والحب والرحمة ..

قلت له : وكيف دفن الكونت ؟ . ان قصتك تستثير فضولى ..

ــ ان الراهب الذى كان يرافقه اهتم بدفنه .. وقد دفن بما يليق بمركز اسرته .. وكنت انا احد الذين شيعوا جثته الى مقرها الاخير ..

دهشت ..

ــ انت .. انت .. كنت احد الذين شيعوا جثته .. و ..

ــ طبعا .. وماذا يدهشك فى ذلك ؟؟ كنت اقرب الاصدقاء اليه .. بل كنا بمثابة اخوين .. لذلك كان من الطبيعى .. بل كان من الضرورى ان ارافق جثمانه الى المقر الاخير ..

ــ آه .. هذا صحيح .. فمعذرة عما بدا من إنفعالى

.. اننى رجل متقدم فى السن واحاديث الاوبئة تزعجنى وقد فكرت فى ان خوف العدوى قد منعك من ..

فقاطعنى بقوله :

ـــ خوف العدوى !! اننى لم اصب بمرض طيلة حياتى .. ولم أخش الكوليرا قط .. والواقع اننى مسلح ضد الامراض بنبوءة عجيبة ..

ـــ نبوءة ؟؟

ـــ نعم .. تنبأت لى احدى العرافات وانا لا ازال طفلا فى المهد بأننى سأموت ميتة عنيفة بيد شخص كان من اصدقائى ..

وصمت لحظة ثم استطرد :

ـــ ولكنها نبوءة خرقاء كما ترى .. لاننى لا اصدقاء لى .. كان لى صديق واحد هو فابيو ـــ ولكنه توفى ..

ـــ ١٠ ـــ

ظهرت على وجهه علامات الحزن .. وكنت اراقبه عن كثب دون ان يشعر .. وذلك بفضل الموينات السوداء التى كانت تحجب عنه نظراتى ..

قلت له :

ـــ اراك تتنهد بحزن .. فهل كنت تحب صاحبك رغم غباوته وتغفله على حد تعبيرك ..

فرفع راسه وابتسم وقال :

ـــ كنت احبه ؟ ! كلا كنت اميل اليه فقط .. لانه ابتاع طائفة من الرسوم التى صنعتها ، والفنان لاسيما اذا كان فقيرا يتعين عليه ان يحترم الزبون الذى يقدره .

نعم .. كنت اميل اليه .. الى ان تزوج ..

ـ آه .. اظن ان زوجته فصمت روابط الصـداقة الضئيلة التى كانت تجمع بينكما ! ؟

فاحمر وجهه .. وازدرد ما بقى فى كأسه من شراب واجاب :

ـ نعم .. اكثر الرجال يتغيرون بعد الزواج ..

ثم صمت لحظة وعاد فاستطرد :

ـ اننا قضـينا هنـا وقتـا طويلا .. فهل تخرج للنزهة ؟ .

ادركت انه يريد ان يغير مجرى الحديث .. فنهضت واقفا ببطء وتثاقل .. شأن الشيخ المتعب المكدود .. واخرجت ساعتى المرصعة ونظرت فيها ..

كانت الساعة التاسعة ..

قلت له :

ـ فى استطاعتك ان ترافقنى الى فندقى اذا شئت .. فأنا مضطر الى الاعتكاف مبكرا بحكم ضعف بصرى .. نعم .. اننى مصاب بضعف مزمن فى اعصـاب العين .. وعينـاى لا تحتملان الانوار الاصـطناعية طويلا ..

سنواصل احاديثنا اثناء الطريق .. هل استطيع ان ارى شيئا من الصور التى ترسمها بريشتك ؟ .. اكون سعيدا اذا اتيحت لى فرصـة الحصـول على بعض رسومك ..

فظهرت على وجهه علامات الاغتباط .. وقال :

ـ الف شكر لك يا سيدى الكونت .. سيكون من بواعث سرورى وفخرى ان يصيب عملى تقديرك الكريم .. وثق بأننى لست ممن يرهقون زبائنهم .. والواقع .. ان فى نيتى ان اهجر الفن بعد ستة شـهور او

ما يقرب من ذلك ..

فقلت بقلة اكتراث :

ـ احقا تقول ؟ هل سيهبط عليك ميراث فى خلال هذه المدة ؟ .

ـ كلا .. ولكن فى نيتى أن اقترن بامرأة ذات ميراث .. فالنتيجة واحدة كما ترى ..

ـ هذا صحيح .. دعنى اهنئك ..

ووثب قلبى بشدة بين ضلوعى .. وغلى الدم فى عروقى ..

اذن كان فى نيته ان يتزوج بارملتى .. بعد ستة شهور .. اى بمجرد انقضاء مدة الحداد التى تفرضها تقاليد المجتمع ؟؟

ولكن صبرا يا صديقى .. ان آلاف الاشياء قد تحدث خلال هذه الشهور الستة ..

سألنى فجأة :

ـ هل زرت كثيرا من بلدان العالم يا سيدى الكونت ؟

ـ نعم ..

ـ وفى اى بلد صادفت اجمل النساء ؟ .

ـ عفوا يا صديقى الشاب .. ان اعمالى الكثيرة كانت دائما حائلا بينى وبين صحبة النساء .. فقد اوقفت كل جهودى على جمع الثروة لعلمى بان الذهب هو مفتاح كل شىء .. اننى لم اصادف قط المراة التى تستطيع ان تستهوينى ، واعتقد اننى ـ فى مثل هذه السن ـ لن اصادف هذه المراة ..

ان لى فى النساء آراء لن اتحول عنها .. وهى آراء لا يسرهن ان يسمعنها ..

فضحك فيرارى وقال

ــ انك تذكرنى بصديقى فابيو .. كان يتحدث من النساء قبل زواجه بمثل لهجتك .. ولكنه سرعان ما غير آراءه ومعتقداته فيهن .. ولا عجب ..

ــ لابد ان زوجته على جانب عظيم من الجمال ؟ .

ــ نعم .. نعم .. سوف تراها بعينيك .. اليس فى نيتك ان تزورها بصفتك صديقا قديما لاسرة زوجها ؟ .

ــ ولماذا ازورها ؟ اننى لا ارغب فى اثارة شجونها .. وفضلا عن ذلك فانها ترملت حديثا .. ومن كان فى مثل حالها لا يستقبل احدا من الزائرين ..

ــ ولكن يجب ان تراها ، انا واثق انها ستقابلك كضيف ممتاز ..

ان سنك وصلتك القديمة بأسرة زوجها ، ومكانتك الممتازة فى المجتمع كل ذلك من شأنه ان يحبب اليها ان تراك ..

اضف الى ذلك انها .. انها ليست حزينة الى الحد الذى تتصوره ..

ــ ليست حزينة الى الحد الذى تتصوره ؟ .

فضحك فيرارى واجاب :

ــ لا تنس انها لا تزال فى شرخ شبابها ، ومن كانت فى مثل جمالها وفتوتها لا ينتظر منها ان تبكى زوجها الى الابد ، سيما اذا كانت لم تحب هذا الزوج حبا حقيقيا .

ووصلنا عندئذ الى الفندق ، فدعوته الى الدخول ..

قلت له : يجب ان تتناول عندى كأسا من النبيذ ..

ثم استطردت بقلة اكتراث :

ــ تقول انها لم تكن تحب زوجها حبا حقيقيا ؟ .

ــ كيف تنتظر من المرأة ان تحب زوجها يا عزيزى الكونت ، اذا كانت لم [illegible] ه الا لمجرد انه يستطيع

أن يوفر لها ما تصبو اليه نفسها من متع ؟ .

لقد قلت لك ان صديقي فابيو لم يكن يقدر جمال امرأته ، وكان يؤثر قراءة الكتب على التحدث اليها ، فلا عجب اذن اذا كانت لم تحبه ..

ـ وأنا قلت لك يا عزيزى السنيور فيرارى اننى لا اعرف شيئا عن النساء ، ولا يهمنى ان اعلم لماذا يحببن ولماذا يكرهن ..

وكنا قد وصلنا الى الجناح الذى اقيم فيه ، فأجال فيرارى البصر حوله ، وقال وعلى وجهه علامات الاعجاب :

ـ هذا المكان جدير بسكنى الملوك يا سيدى الكونت ، اننى اغبطك ..

ـ لا حاجة بك الى ذلك ، ان لك الشباب والصحة ، ولك ـ كما فهمت منك ـ الحب .. وكل هذه اشياء يراها الناس افضل من الثروة ..

فصعدنى بعينيه ثم قال وعلى وجهه امارات القلق :

ـ ولعل من اعجب المصادفات يا كونت ، اننى ارى فى قوامك ما يذكرنى بصديقى المرحوم الكونت فابيو ..

فملأت قدحه من النبيذ ، ثم ملأت قدحى ، ورفعته الى فمى بيد ثابتة ..

اجبت :

ـ احقا تقول ؟ ! يسرنى ان اذكرك به .. اذا كانت الذكرى تروقك .. على ان طوال القامة كثيرا ما يتشابهون حجما ومنظرا ..

فقطب فيرارى حاجبيه ولم يجب ..

كان لا يزال يحملق الى بحدة فقابلت نظرته بثبات ..

واخيرا نهض واقفا وازدرد ما بقى فى قدحه وقال وهو يبتسم :

ـــ هل تسمح لى بأن اذكرك عند الكونتس رومانى ؟! انا واثق انها سترحب بك اذا رغبت فى زيارتها ..

ـــ الحقيقة اننى اكره مسامرة النساء .. لان خفتهن تضايقنى ولكنى انست من كرم خلقك ما يشجعنى على ان اعطيك رسالة الى الكونتس .. اللهم الا اذا لم يكن فى نيتك ان تزورها فى وقت قريب ..

فاحمر وجهه .. ولكنه اجاب على الفور :

ـــ الامر على العكس .. فاننى سأذهب لزيارتها الليلة بالذات .. واؤكد لك اننى يسرنى ان ابلغها تحيتك ..

ـــ كلا .. كلا .. لا اريد ان ابعث اليها بالتحية ، وانما اريد ان ابلغها رسالة تستطيع انت منها ان تعلم لماذا كنت ارجو مقابلة زوجها الكونت ..

الواقع ، ان والد فابيو اسدانى فى شبابى يدا لا انساها ، ولن انساها ..

وقد كنت ارمى دائما الى التعبير عن شكرى وامتنانى بأية صورة من الصور .. وعندى الان طائفة من الاحجار الكريمة لا تقوم بثمن .. وقد عنيت بجمعها بنفسى ، وكان فى نيتى ان اقدمها هدية لابن صديقى القديم ؛ ولكن موته الفجائى قد حال بينى وبين انفاذ هذه النية ..

هذه المجوهرات والاحجار الكريمة لا قيمة لها عندى الان .. وانا على استعداد لتقديمها الى الكونتس رومانى اذا تفضلت بقبولها ..

لقد كان مآل هذه المجوهرات اليها لو ان زوجها بقى

على قيد الحياة .. ولا يزال فى استطاعتها الاستيلاء عليها اذا ارادت ..

فاذا تفضلت يا سيدى وابلغتها هـذا .. وعرفت رغباتها فاننى اكون شاكرا ..

فاجاب فيرارى باحترام وهو يهم بالانصراف :

ـ يسرنى ان افعل يا سيدى .. ويسرنى بالاكثر ان احمل الى الكونتس رسالتك ..

والى اللقاء يا سيدى الكونت .. آمل ان نتقابل فيما بعد ..

فاجبته فى هدوء : لا شك عندي فى اننا سنتقابل ..

ـ ١١ ـ

جاء فيرارى لزيارتى مبكرا فى صباح اليوم التالى .. وكنت اتناول طعام الافطار فاعتذر عن ازعاجه لى وقال :

ـ لقد جئت فى هذه الساعة المبكرة لان الكونتس رومانى الحفت على فى مقابلتك باسرع ما يمكن .

ـ هل قابلتها ليلة امس ؟ .

فاحمر وجهه قليلا واجاب ..

ـ نعم .. ولم امكث معها الا دقائق معدودة .. وقد ابلغتها رسالتك .. فشكرتك وطلبت الى ان انبئك بأنها لا تعتقد ان فى استطاعتها قبول المجوهرات ما لم تشرفها اولا بزيارتك .. انها عادة لا تقابل احدا منذ فجيعتها فى زوجها .. ولكنك صديق قديم لاسرة زوجها ، وهى لذلك ترحب بك من كل قلبها ..

فاحنيت رأسي باحترام وقلت :

ـ هذه دعوة تشرفنى .. ولكنى لا استطيع قبولها .. فى الوقت الحاضر على الاقل .. فارجو ان تبلغ السيدة

الكريمة اعتذارى .. وان تصوغ هذا الاعتذار فى الاسلوب الذى تعتقد انه لا يخدش شعورها .
فنظر الى فى دهشة وحيرة وسأل :
ـ اتعنى ما تقول حتا ؟ اتعنى انك ترفض زيارتها ؟
فابتسمت :
ـ نعم يا سنيور فيرارى .. انا اعنى دائما ما اقول .. عندى من الاعمال فى (نابولى) ما يستغرق كل اهتمامى فى الوقت الحاضر . ولكنى اعدك بزيارة الكونتس متى فرغت من هذه الاعمال .
ـ انك فى الحق رجل غريب الاطوار .. ويخيل لمن يسمعك انك تمقت النساء ..
ـ ان المقت كلمة قوية يا صديقى .. والانسان لا يستطيع ان يمقت ـ الا اذا كان قد عرف الحب .. كلا .. كلا .. انا لا اعتقد ان النساء حقيقات بالكراهية والمقت .. كل ما هنالك اننى لا اعبأ بهن ..واعتقد انهن عبء على عاتق الرجل .
ولكن لنترك الحديث فى هذا الان . ولنتحدث فى امر آخر .. لنتحدث عن رسومك مثلا .. متى استطيع ان ارى لوحاتك ؟
ـ متى شئت .. وان كنت اعتقد ان انتاجى الفنى لا يستحق عناء انتقالك .
ـ انك شديد التواضع يا سنيور .. فهل تسمح لى بزيارة معرض رسومك بعد ظهر اليوم ؟ ان لدى متسعا من الوقت بين الساعتين الثالثة والرابعة ..
ـ اننى ارحب بزيارتك يا سيدى .. ولكنى اخشى فقط الا تصيب لوحاتى اعجابك .. لاننى لست بالفنان البارع .

فابتسمت .. من ذا الذى يعرف تفاهة اعماله الفنية مثلى !!

قلت : ـ اما المجوهرات التى اريد اهداءها الى الكونتس فانها عندى هنا الان .. فهل يهمك ان تراها ؟

ـ طبعا .. طبعا .. انها مجوهرات فريدة بغير شك ..

ـ اعتقد ذلك ..

ونهضت الى دولاب فى ركن الغرفة .. وجئت منه بصندوق اسود صغير .. اخرجت منه عقدا بديعا من الزمرد والماس .. وسوارا مرصعا باحجار مماثلة .. وطائفة من دبابيس الشعر .. وخاتما ماسيا رائعا .. يعتبر من بدائع الفن .. وهذه الحلى جميعا اخذتها من اسلاب (كارميلو) ووضعتها بين يدى صائغ بارع فى باليرمو فأخرج منها هذه المجموعة المتشابهة البديعة ..

فأفلتت من بين شفتى فيرارى صيحة دهشة واعجاب وهو يتأمل الاحجار الكريمة ويفحصها بعينين نهمتين : قلت له بقلة اكتراث :

ـ هذه اشياء تافهة .. ولكنها ترضى اذواق النساء .. فأرجوك ان تحملها الى الكونتس رومانى بالنيابة عنى ، وان ترجوها فى قبولها كعربون لزيارتى المقبلة .. أنا واثق انك تعرف كيف تقنعها بقبولها .. على اعتبار ان هذه المجوهرات كان مصيرها حتما اليها .. لو ان زوجها بقى على قيد الحياة .

فتردد فيرارى لحظة ثم سألنى :

ـ وهل فى نيتك حقا ان تزورها ؟ اذا قلت ذلك فانها ستنتظر زيارتك حتما ..

ـ يخيل الى انك تصر على هذه الزيارة .. فهل لى

ان أسألك عن السبب ؟

فأجاب على الفور :

ــ اننى اصر على هــذه الزيارة .. لان الكونتس سوف يزعجها ان تقبل هديتك دون ان تتاح لها الفرصة لشكرك عليها .. وانا واثق انها لن تقبلها اذا لم تتمكن من شكرك .

ــ كن مطمئنا .. انها تستطيع ان تشــكرنى بينها وبين نفسها .. ومع ذلك فاننى اعدك بأن ازورها بعد ايام قلائل .. اذا انت تفضلت وقدمتنى اليها .

فشد على يدى بحرارة . وقال :

ــ فى هذه الحالة استطيع ان احمل اليهــا هديتك يا سيدى الكونت . الى اللقاء اذن بين الساعة الثالثة والرابعة .

قصدت الى منزله فى الموعد المحدد . ولم اكن بحاجة الى قراءة عنوانه فى بطاقته . فقد كنت اعرف المنزل من قديم ..

كان منزله صغيرا انيقا ، قائما على ربوة تشرف على الخليج . وقد قضيت فى هــذا المنزل بعض ســاعات سعيدة قبل زواجى .. حيث كنت اقرأ كتابا او اجاذب فيرارى الحديث او اراقبه وهو يرسم احدى الصور .

طرقت الباب .. ففتحه فيرارى نفســه .. وهتف مرحبا :

ــ تفضل .. تفضل بالدخول .. سترى كل شىء هنا راسا على عقب ولكنك ستلتمس لى العذر متى علمت اننى اقيم هنا وحدى .. واننى لم اســتقبل احــدا من الزائرين منذ مدة ..

وذهب بى الى المكان الذى يعمل فيه .. فرأيت مائدة

عليها باقة من الزهور .. ولوحة عليها صورة لم تتم .. وطائفة اخرى من الصور والادوات مبعثرة هنا وهناك.
قال :

ـ يجب ان اقول لك قبل ان انسى ان الكونتس روماني دهشت واعجبت كل الاعجاب بهديتك الثمينة .. وانها تنتظر زيارتك بفارغ الصبر .

فأجبته ببرود : ـ اننى ما ازال عند وعدى لك ..

وشرع فيرارى بعد ذلك يعرض لوحاته .. وكلها خالية من معانى الفن الصحيح .. ولكنى ابتعت منها صورتين .. ودفعت ثمنهما بسخاء .. ليس لمجرد الرغبة فى تشجيعه والاحسان اليه دون ان اخدش شعوره كما كنت افعل ونحن اصدقاء .. وانما لابتاع ثقته .. واشجعه على الاطمئنان الى .

واخيرا قدم الى فيرارى كأسا من النبيذ .. ولكنى ما كدت ارفعه الى شفتى .. حتى سمعت صوت اقتراب مركبة .. ثم وقفت المركبة امام الباب .. فسألت مضيفى :

ـ هل تنتظر قدوم احد من الزائرين يا سنيور فيرارى ؟

فظهرت على وجهه علامات الحيرة .. ثم ابتسم .. وتردد ..

قال : ـ اننى لست على يقين .. ولكنى اعتقد ان ..

وهنا دق جرس الباب .. فقال فيرارى كلمة على سبيل الاعتذار وانطلق ليفتح الباب .

وثبت عن مقعدى ..

ذلك اننى عرفت .. عرفت بالغريزة من هو القادم وبذلت جهدا جبارا لاسيطر على عواطفى ، واهدىء من

انفعالى وخفقان قلبى ، ثم اعتدلت فى مكانى .

سمعت وقع اقدام تقترب ، مقترنة بهمس خافت .

ثم فتح الباب ، وحمل الى النسـيم رائحـة عطرية اعرفها .

وما هى الا لحظة ، حتى رأيت نفسى وجها لوجه امام .. امام زوجتى .

— ١٢ —

ما كان اجملها !

نظرت اليها بمثل الدهشة والاعجاب اللذين شعرت بهما عندما رايتها لاول مرة .

وقفت لحظة بالباب .. وعلى شـفتيها ابتسـامة ساحرة ..

قالت فى ادب ... بعد تردد وجيز :

— اذا لم يخطىء ظنى فأنا فى حضرة النبيل الكونت سيزار اوليفا ؟

حاولت ان اتكلم فلم استطع .

وشعرت بلسانى يلتصق فى حلقى .. وجف لعابى .. وارتج على القول .

اجبتها بأن احنيت راسى باحترام .. كما لو كنت فى حضرة احدى الملكات ..

اقتربت منى فى الحـال .. وبسـطت الى يديهـا بالرشاقة التى طالمـا اعجبت بها وقالت وهى لا تزال تبتسم :

— انا الكونتس رومانى .. وقد فهمت من السـنيور فيرارى انك تنوى زيارته بعد ظهر اليوم .. فلم يسعنى الا القدوم لاعبر لك عن تقديرى العظيم لهديتك الملكية ..

ان المجوهرات رائعة حقا .. فاسمح لى ان اعبر لك عن خالص شكرى ..

كانت ترتدى ثوبا اسـود يعبر افضـل التعبير عن تكوينها البديع .

ولم يسعنى — انا زوجها المتوفى — الا ان اعترف بانها على جانب عظيم من الفتنة والاناقة .

فتناولت يديها .. وضـغطهما بشدة .. نعم .. ضغطهما بشدة .. حتى خيل الى ان خواتهما غرزت فى لحمها .. وانها لولا ادبها الجم لصرخت متألمة .

وكنت عندئذ قد ملـكت نفسى .. وسـيطرت على عواطفى وتأهبت للقيام بدورى ..

قلت لها بصوت قوى خشن :

— على العكس يا سيدتى .. انا المدين لك بالشكر لتفضلك بقبول هذه الهدية التافهة .. ولا سيما فى هذه الظروف التى يكاد فيها وميض الماس يزعجك فى حزنك .. ولو ان زوجك قد بقى على قيد الحياة لصارت هذه المجوهرات هديته اليك .. ولاصبحت لها فى نظرك قيمة غير قيمتها الان ..

ولاحظت وانا اتكلم ان وجهها امتقع .. وانها راحت تنظر الى بحدة .

بيد اننى تحصنت خلف عويناتى .. وقابلت نظراتها الغامضة بثبات .

جذبت اصابعها من يدى بلطف ، فتقدمت اليها مقعدا .. جلست عليه وهى لا تزال تنظر الى بحدة .

وكان فيرارى فى هـذه الاثناء يشـتغل بملء اقداح النبيذ واعداد صحفة من الفاكهة . فنظر الى واستغرق فى الضحك وهتف :

— ها .. ها .. ها .. انك (وقحت) يا سـيدى الكونت .. يجب ان تعلم اننى والكونتس قد اعددنا لك هذه المفاجأة الطريفة .. ذلك لاننا لم نكن نعلم عن يقين متى تتاح لك فرصة زيارتها .. ولم يكن ليطمئن لهما بال قبل ان تشكرك .. ودبرنا هـذه المقـابلة التى لم تتوقعها .. فهل صادفتك فى حياتك مفاجأة اظرف من هذه ؟ لعترف يا كونت بأنك مغتبط ..

فأجبت بشيء من التهكم :

— اننى مغتبط بطبيعة الحـال . وكيف لا يغتبط الانسان لشهود هذا الشباب اليانع .. وهذا الجمـال الرائع .. اننى مغتبط وفخور لان الكونتس سـمحت لى بالتعرف اليها .. رغم اعتزالها المجتمع مؤقتا بسبب حدادها .

وهنا ظهرت على وجه زوجتى عـلامات الحزن . وقالت :

— مسكين فابيو .. لا شك انه كان يسره كل السرور ان يقابلك ويرحب بك كصديق قديم لابيه .. لقد كان المسكين يحب اباه حب عبادة ..

والواقع اننى لا استطيع ان اتصور انه مات .. لقد كان موته فجائيا ومخيفا ..

واغرورقت عيناها بالدموع فعلا .. ولم يدهشنى ذلك .. فالكثيرات من النساء يسـتطعن ان يبكين عند اللزوم .

وقلت لها ببرود :

— رغمى عنك يا سـيدتى .. فما اسرع ما تندمل جراح الشباب ، وانا شـخصيا شـديد الاسف لوفاة زوجك .. ولكنى ارجوك الا تسـلمى نفسك للحزن

والاسى .. فالحزن والاسى لا يجديانك من هذه النجيمة شيئا .

- لا تزال الحياة منبسطة امامك .. ولا تزال تنتظرك ايام سعيدة .. ومستقبل كفيل بأن ينسيك الماضى .

فابتسمت .. وتلاشت دموعها كما تتلاشى قطرات الندى فى حرارة الشمس . وقالت :

ـ اشكر لك تمنياتك الطيبة لى يا سيدى الكونت .. وانى اعتمد عليك فى ان تفتتح ايامى السعيدة بزيارتك .. انك ستزورنى .. اليس كذلك ؟ ان قصرى وكل ما فيه تحت تصرفك ..

فترددت .. وقال فيرارى فى شىء من التهكم :

ـ ان الكونتس لا تعلم شيئا عن كراهيتك للنساء يا سيدى الكونت ..

فنظرت اليه ببرود . وقلت احدث زوجتى :

ـ ان السنيور فيرارى على حق يا سيدتى .. فأنا على شىء من خشونة الطباع واتجنب غالبا صحبة النساء .. ولكن وا أسفاه .. ما حيلتى امام بسمات الملائكة .

وأحنيت قامتى للكونتس باحترام شديد .. فأضاء وجهها لهذا الاطراء .

وتناولت قدح النبيذ من يدى وقالت وهى تحدجنى بعينين باسمتين :

ـ هذه مجاملة بليغة يا سيدى الكونت .. ولكنها تعنى بطبيعة الحال انك ستزورنى غدا .

أن من حق الملائكة ان يطاعوا .

جيدو .. اعنى يا سنيور فيرارى .. هل لك فى مرافقة الكونت غدا الي القصر ؟

فأحنى جيدو راسه بشيء من الاستياء وقال لها :
ــ يسرنى انك استطعت ما لم استطعه من اقناع الكونت .. لقد خيل الى انه عنيد لا تلين له قناة .
فضحكت بسرور واجابت :
ــ ان النساء وحدهن يستطعن الوصول الى اغراضهن .. اليس كذلك يا سيدى الكونت ؟
اجبتها :
ــ لا استطيع ان اجيبك يا سيدتى الكونتس .. فأنا لا اعرف غير القليل من طبائع الجنس اللطيف .. ولكنى اشعر بالغريزة انك لابد ان تكونى على حق .. فى كل ما تقولينه .. ان عينيك تردان الجاحد الى حظيرة الايمان .
فرمقتنى بنظرة خلابة .. ونهضت واقفة استعدادا للانصراف فقلت لها :
ــ هذه زيارة ملاك .. خاطفة .. وبديعة
فأجابت وهى تبتسم :
ــ سنتقابل غدا يا كونت .. هذا وعد منك ارجو ان تبر به .
سانتظرك بعد الظهر .. لكى تتمكن من رؤية ابنتى (ستيلا) قبل ان يغلبها النعاس .. انها تشبه فابيو المسكين كثيرا .. الى اللقاء غدا اذن .
ومدت الى يدها : فرفعتها الى شفتى .
وجذبت يدها من بين اصابعى .. وهى تنظر فى عينى .. او بالاحرى فى عويناتى .. وسألت :
ــ هل انت مصاب بضعف فى قوة الابصار ؟
ــ ان اعصاب عينى ضعيفة لا تحتمل الضوء الشديد .. ولكن ليس لى ان اشكو .. فهذا الضعف يقترن

عادة بالشيخوخة .

فقالت وهى مستغرقة فى التفكير :

ـــ لا يلوح عليك انك متقدم فى السن .

واغلب ظنى انها لاحظت فى الحال ، بما طبع عليه بنات جنسها من قوة الملاحظة .. ان بشرة وجهى ناعمة لم تدركها التجعدات .

ولكنى اجبت على الفور وانا اتظاهر بالدهشة :

ـــ لا يلوح اننى متقدم فى السن ؟ ولكن ما هـــذا الشعر الابيض ؟

ـــ كثيرون من الشباب تشتعل رؤوسهم شيبا قبل الاوان .. ومهما يكن من امر فهذا الشعر الابيض يلائم طلعتك .. ويزيد تقاطيعك نبلا .

واحنت راسها فى رشاقة . وانصرفت من الغرفة . فشيعتها مع فيرارى الى الباب الخارجى . حيث كانت مركبتها فى الانتظار .

وعندما رجعت بعد ساعة الى غرفتى الخاصـــة فى الفندق . لفت نظرى وجود سلة مذهبة ملأى بالفاكهة والزهور . موضوعة فوق احدى الموائد .

فتحولت الى (فنشـــنزو) ـــ خادمى الخـــاص ـــ وسألته :

ـــ من الذى بعث بهذه السلة ؟

فأجاب : ـــ بعثت بها الكونتس رومانى .. ان بها بطاقة يستطيع سيدى ان يقراها .

فتناولت البطاقة .

كانت البطاقة تحمل اسم زوجتى .. وقد كتبت تحت الاسم بخطها الانيق :

« لتذكرة الكونت بزيارته الموعودة غدا » .

واستولى على غضب فجائى .. فهشمت البطــاقة بين اصابعى .. وقذفت بها بعيدا .

كانت رائحة الزهور والفاكهة تؤذى حواسى فقلت لخادمى فى ضجر :

ــ اذهب بها الى ابنة صاحب الفندق انها طفلة .. وقد تسرها هذه الاشياء .

وشعرت بالارتياح .. عنــدما غابت السـلة عن بصرى ...

يا لله .. هدية لى .. من حديقتى !

قهقهت ضاحكا ..

لقد بدأت زوجتى لعبتها .. وبداتها باسرع مما كنت اتوقع .. فخطت اول خطوة لاجتذاب رجل جديد .. لا تعلم عنه الا انه واسع الثروة .

الذهب .. الذهب دائما !

ــ ١٣ ــ

ــ اهلا بك وسهلا فى قصر آل رومانى ..

نطقت زوجتى بهذه الكلمات .. فكان وقعها فى اذنى عجيبا .

اضطرب عقلى لحظة .. وخيل الى ان مقصــورة القصر .. والاشجار المألوفة المحيطة به تهتز جميعـا وتتمايل امام عينى .

فى هذا القصر ولدت .. ونشأت .. وفيه قضــيت اسعد ايام حياتى .. وهأنذا اعود اليه .. زائرا .. كدت ابكى حزنا واسى .

اجلت الطــرف حولى فى جــوانب القصر الذى كنت سيده قبل ان اموت .. ولاحظت بعض تغيير وتبديل ..

هنا وهناك ..

لم ار اثرا للمقعد الكبير الذى تعودت ان اقضى فيه الساعات الطوال وكتابى بين يدى ..

ورايت خادمى العجوز (جيا كومو) الذى كان من قبل خادما لابى .. والذى عرفنى طفلا وصبيا وشـابا .. رايته متعبا منهوك القوى .. وقد رسم الحزن على وجهه اخاديد عميقة لم يكن لها من قبل اثر .

وسـألت نفسى .. ترى اين كلبى (ويفز) وماذا صنعوا به ؟

كانت الحديقة مقره دائما .. حيث اعتاد ان يصطلى تحت اشعة الشمس .. ولكنى لا اراه الان ..

انقبض صدرى حين لم ار كلبى المحبوب .. ولكنى تذكرت الدور الذى يجب على ان اقوم به الى النهاية ..

((اهلا بك وسهلا فى قصر آل رومانى)) .

هذا ما قالته زوجتى .. ثم استطردت فى شىء من الدعابة عندما لاحظت صمتى :

ـــ اخشى ان تكون آسفا على قدومك لزيارتى ..

فابتسمت .. وابتسمت ..

كان يتعين على ان اتظاهر بالشهامة .. وسـعة الصدر فأجبت :

ـــ تقولين اننى آسف يا سـيدتى !! لو صح ذلك لكنت اشـد الناس جحودا ونكرانا .. وهل اسـف (دانتى) عندما راى الجنة ؟

فاحمرت وجنتاها .. واهتزت اهدابها الطويلة فوق عينيها الواسعتين الساحرتين .

اما فيرارى ـــ وكان قد جـاء برغبتى ـــ فقد تجهم وجهه .. ولكنه لزم الصمت .

وذهبت بى زوجتى إلى قاعة الاســـتقبال التى تطل نوافذها على المدينة ..

وجدت القاعة على حالها ، فيما عدا شيئا واحدا .. هو تمثال نصفى من الرخام يمثلنى وانا صبى ..

هذا التمثال ازيل من مكانه .. ووضعت مكانه آنية زهور .. جلست على احد المقاعد وانا اقول :

ــ اننى اتذكر هذا القصر جيدا ..

فقال فيرارى بسرعة .. كأنما ادهشه ما سمع :

ــ تتذكره ؟ !

ــ بلا شك .. الم اقل اننى صــــديق قديم لاسرة رومانى .. واننى كنت كثير التردد على والد فابيو ؟

فظهرت على (نينا) علامات الاهتمام وسألت :

ــ وهل رايت فابيو وهو صغير ؟

ــ رايته مرة واحدة .. وكان ابواه يحبانه حبـــا شديدا .

سألتنى زوجتى : ــ وهل كنت تعرف والدته ؟

ــ كنت اعرفها حق المعرفة .. كانت امراة جميلة لا تشعر بجمالها .. ولعل هذا الوصف فيه الكفاية .. كان كل غرضها فى الحياة ان تنسى نفسها وتســــعد الاخرين .. وان تحيط بيتها بجو من المرح والفضيلة .. وقد ماتت فى مقتبل العمر .

فقال فيرارى فى تهكم :

ــ لقد احسنت صنعا .. ان الاجل لم ينفسح امامها حتى تتعب من زوجهـــا والا من يدرى .. كيف كانت تنتهى حياتها الزوجية .

فغلى الدم فى عروقى .. ولكنى ملكت نفسى واجبت ببرود :

ــ اننى لا افهمك .. ان السيدة التى اتحدث عنها كانت من الطراز النبيل القديم ..

ولاحظت (نينا) خشونة اسلوبى .. فتدخلت فى الامر وقالت :

ــ لا تلق بالا الى كلام السنيور فيرارى يا عزيزى الكونت .. انه متهور ويقول فى بعض الاحيان كلاما ينطوى على الحمق .. ولكنه لا يعنى ما يقول .. لقد كان زوجى العزيز المسكين يضيق به احيانا رغم حبه له ..

ولكن ما دمت تعرف كل هذا عن اسرة رومانى يا سيدى الكونت .. فلا شك انه يهمك كذلك ان تعرف ابنتى (ستيلا) الصغيرة ، وان تراها فهل ارسل فى طلبها .. او لعلك تبرم بالاطفال ؟

فأجبت فى هدوء رغم ان قلبى كان ينبض بشدة :

ــ الامر على العكس يا سيدتى .. فانا شفيق بالاطفال.. ويهمنى بصفة خاصة ان ارى حفيدة صديقى القديم العزيز .

فأمرت زوجتى باستدعاء ابنتها .. وما هى الا لحظة حتى فتح الباب ببطء .. ووقفت المخلوقة الصغيرة العزيزة بالباب وقفة تردد .

صاحت بها (نينا) فى ضجر :

ــ ادخلى يا ستيلا .. لا تخافى ..

وعلى الرغم من قصر مدة الفراق .. فاننى لاحظت ان ستيلا تغيرت كثيرا .

كان وجهها شاحبا تلوح عليه علامات الخوف والقلق وعدم الثقة ..

اقتربت منا فى تردد .. ثم وقفت فجأة .. ونظرت

الى فيرارى فى ارتياب ..

ولكنه قابل نظرتها المرتعبة بابتسامة تهكم . وقال :

ــ اقتربى يا ستيلا .. لا حـاجة بك ان تخافى .. فاننى لن انتهـرك الا اذا اتيت بمـا تستحقين عليه التعنيف .. اقتربى يا بنية .. وتحدثى الى هذا السيد .. انه كان يعرف اباك ..

وهنا لمعت عينا الطفلة .. واقتربت منى بخطوات ثابتة .. ووضعت يدها الصغيرة فى يدى ..

كانت لمستها كافية لان تذيب قلبى وتجردنى من كل ارادتى .

حملتها بين يدى..واجلستها على ركبتى .. واخفيت وجهى لحظة بين جدائل شـعرها .. متظـاهرا بانى اقبلها..وكان غرضى ان اسمح للدموع التى ملأت عينى ان تفيض .. وتجف ..

اواه يا ابنتى العزيزة ..

ارتاحت الى الجلوس على ركبتى .. واخذت تمعن النظر فى وجهى .. وكل من نينا وفيرارى يرقبانها عن كثب .. ولكنها لم تعبأ بهما .. وما لبثت ان ارتسمت على شفتيها ابتسامة عذبة . واحاطت عنقى بساعديها ومدت الى شفتيها لاقبلهما ..

ضـممتها الى صـدرى .. ونظرت الى زوجتى وفيرارى .. لارى هل اثار المنظر ريبتهما ؟

ولكن ــ .. لماذا يرتابان ؟ الم يشهد فيرارى بنفسه دفنى ؟

قلت محدثا ابنتى :

ــ انك مخلوقة ساحرة يا سيدتى الصغيرة ؟ ان اسمك ستيلا .. اليس كذلك ؟ !! انه اسم يطلق على

النجوم .. لانك نجم صغير .
فأجابت فى خجل .. وفى شىء من التردد :
ـــ كان ابى يقول اننى نجم صغير ..
فقالت (نينا) وهى تتظاهر بتجفيف دموعها :
ـــ لقد افسدك ابوك يا طفلتى .. مسكين ابوك .. انك كنت تضايقينه كما تضايقيننى الان ..
فارتجفت شفتا الطفلة . ولكنها لم تجب .
قلت لها :
ـــ احقا تضايقين امك يا طفلتى العزيزة ؟.ارى انك طفلة هادئة جميلة .
فلم تجب .. واسندت راسها الصغير الى ساعدى .. ونظرت الى فى شىء من التوسل وسألت فى خجل :
ـــ هل رأيت ابى ؟ هل سيعود ابى وشيكا ؟
لم اجبها .. فقد بلغ منى التــأثر مبلغه . ولحسن الحظ ان اسرع فيرارى الى الكلام فقال :
ـــ كفى هذيان يا بنية .. انت تعلمين ان والدك قد ذهب لانك كنت تضايقينه .. وانه لن يعود ابدا ... انه ذهب الى مكان خلو من الاطفال امثالك .
قبحك الله ايها الوحش .

لقد ادركت الان فقط سر حزن ابنتى المسكينة .. أدركت أنها كلما خالفت لهما أمرا فهماها اننى هجرتها فرارا من سلوكها .. فاثقلا ضميرها البرىء بهذا الاثم الذى لم ترتكبه .
لم تعبر الطفلة عن شعورها بالكلام او الدموع .. ولكنها اشاحت بوجهها عن فيرارى .. وفى عينيها نظرة كبرياء واحتقار .. نظرة طالما شهدتها فى عينى ابى .. فانفجر فيرارى ضاحكا وهتف :

ـ ما اشبهها بابيها .. وفى عينيها هذه النظرة .. انها صورة طبق الاصل من فابيو .. ولا ينقصـها الا هذا .

ونهض اليها .. وتناول احدى جدائل شعرها . ووضعها فوق شفتها العليا على صورة شارب .

وقاومته الطفلة وهى غضبى .. واخفت وجهها فى ردائى .

اما أمها فلم تحـاول أن تدفع عنها سماجة ذلك المخلوق .. واكتفت بأن ضحكت .

واقبل خادمى العجوز (جيا كومو) يحمل اقداح النبيذ .. فقال فيرارى وهو يتناول قدحه :

ـ هو ذا جياكومو العجوز .. انه يعرف الكونت رومانى واباه حق المعرفة .. فسله عن رايه فى (فابيو) .. انه كان يحبه حب عبادة .

فتحولت الى الخادم . وقلت له :

ـ اننى لا اعرف وجهك يا صديقى .. ومن المرجح انك لم تكن هنا .. عندما كنت اتردد على الكونت رومانى الكبير .

فأجاب جياكومو وهو ينظر الى فى شىء من الريبة :

ـ كلا يا مولاى . لقد التحقت بخدمة الكونت رومانى الكبير قبل وفاة زوجته بعام .

ـ آه .. ولذلك لم يكن لى سرور التعرف بك .

واخذتنى الشفقة بالخادم الامين عندما رايت شفتيه ترتجفان وتقاطيع وجهه تدل على الذلة والمسكنة !

ـ هل كنت تعرف آخر سـلالة آل رومانى منذ طفولته ؟

فأجاب والدموع تملأ عينيه : ـ نعم يا سيدى .

ــ يخيل الى انك كنت تحبه وتخلص له .

ــ اننى لا اتمنى ان اخدم سيدا افضل منه ، ولقد اصبحت رجلا غير الرجل منذ وفاته ، سل سيدتى عن ذلك ، فتبئك انها غير راضية عن اعمالى . .

ونظر الى (نينا) بعينين حزينتين ، فقطبت حاجبيها واجابت :

ــ الواقع انه اصبح كثير النسيان الى درجة لا تطاق . . فهو يضطرنى ان اصدر اليه اوامرى اكثر من مرة حتى يعيها .

فتنهد الخادم العجوز وصمت .

ثم تذكر واجبه فملأ قدحى بالنبيذ وانصرف .

دارت احاديثنا بعد ذلك حول شئون اخرى ، وكنت اعلم عن زوجتى براعتها ، وذلاقة لسانها ، وطول باعها فى شتى ضروب الحديث .

ولكنى لاحظت فى ذلك المساء انها ابرع مما كانت فى اى وقت مضى ، ولاحظت كذلك انها قد حزمت امرها على اجتذابى اليها ، فراحت تعمل لهذا الغرض بالقول وبالاشارة ، دون ان تكلف نفسها عناء المواربة . ودون ان تقيم وزنا لشعور عشيقها :

وكان فيرارى يختلس اليها بين الفينة والفينة نظرات التأنيب والغضب فلا تأبه له ، واخيرا نهضت وهى تقول :

ــ سأترككما الان لتتناولا من ضروب الحديث ما يروقكما كرجلين ولكما بعد ذلك ان تلحقا بى فى شرفة القصر ، حيث تجدان القهوة فى الانتظار . .

وابتسمت لى . . وخرجت . . مصطحبة ابنتها .

وساد الصمت بينى وبين فيرارى لحظة طويلة ، كنت

فى خلالها استعرض خطتى ، وافكر فى الخطوة التـالية التى يجب ان اخطوها .

قلت له بلهجة المتأمل المفكر :

ـ حقا انها امراة جميلة .. وعلى جـانب كبير من الذكاء ، اننى معجب بحسن ذوقك يا سنيور ؟

فنظر الى بحدة ، كمن لدغه عقرب وسأل :

ـ ماذا .. ماذا تعنى ؟

فاجبته بلطف ، وانا افتل شاربى :

ـ هذا سبيل الشـباب يا صـديقى العزيز فلماذا تخجل من شعورك .. اننى اعطف عليك من كل قلبى ، واعتقد ان السيدة ترتكب حماقة كبيرة ، اذا لم تقـدر مبلغ اعجابك بها وحبك لها ..

ـ هل تظن .. هل تعتقد اننى ..

ـ انك تحبها ؟ ولم لا ؟ لا شـك ان الكونت فابيو نفسه لم يكن يرجو لارملته مصيرا افضل من ان تصبح زوجة لصديقه الاوحد .. فاسمح لى اذن ان اشرب نخب صحتك .. ونخب سـعادتك .. وان اتمنى لك التوفيق فى غرامك

ورفعت كأسى الى شفتى .

وقد وجد المغفل التعس فى حركاتى وكلامى ما ازال شبهته وقضى على غيرته .. فانبسطت اسارير وجهه . وشد على يدى بحرارة وهو يقول :

ـ ارجو معذرتك يا سيدى الكونت .. عما تكون قد لاحظته من جفوتى وخشونتى .. لقـد ردتنى كلماتك الكريمة الى رشدى .. اننى اغار عليهـا الى درجة الجنون .. وقد توهمت انها اصابت هوى فى نفسـك

ولا اكتمك اننى كنت افكر فى التو واللحظة فى طريقة .. لقتلك ..

فقهقهت ضاحكا . وقلت له :

ــ احقا تقول ؟ اننى اشكر لك نياتك الطيبة ..

ــ اكرر لك اعتذارى يا سيدى الكونت .. اننى كنت اتعس مخلوق خلال الساعتين الاخيرتين ..

ــ انك تعذب نفسك بغير مبرر شأن جميع العشاق امثالك ، ولكنى اكرر لك القول .. بأنك متى قطعت من الحياة مثل المرحلة التى قطعتها .. فسوف تؤثر رنين الذهب على ضحكات النساء ..

ــ فى هذه الحالة استطيع ان اثق بك .. فاعلم اذن اننى احب الكونتس .. بل ان كلمة (الحب) اضعف من ان تعبر عن شعورى .. انك لا تستطيع ان تقدر مبلغ المى اذا ..

فقاطعته ببرود :

ــ رفه عنك .. المهم فى مثل هذه الاحوال ان يحتفظ الانسان بهدوئه .. ولكن هل تعتقد بأن الكونتس تبادلك الحب ؟

ــ اعتقد ؟ يا الهى .. انها ..

وهنا احمر وجهه فجأة .. وامسك عن الكلام .. ثم استطرد بعد لحظة :

ــ بحسبك ان تعلم انها لم تكن تعبأ بزوجها ..

ــ أعلم ذلك .. لاينبغى أن يكون الانسان شديد الملاحظة ليعلم ذلك ..

وانطلقنا الى المقصورة وقد سرى عن فيرارى .. وعاد اليه مرحه ..

ولاحظت (نينا) ذلك.وشعرت بدورها بالارتياح ..

استقبلتنا وعلى شفتيها تلك الابتسامة الساحرة .. وقدمت الينا اقداح القهوة بنفسها ..

غير اننى ما كدت استقر فى مكانى .. حتى وصل الى سمعى صوت عواء خافت محزن ، فسألت : ما هذا ؟؟

كنت اعرف مصدر هذا الصوت طبعا ..

قالت زوجتى :

ـ هذا صوت (ويفز) ، انه كلب مزعج ، ولم يكف عن هذا الانين المحزن منذ وفاة فابيو ..

ـ واين هو ؟

ـ انه ضايقنا كثيرا وكان يجول فى انحاء الغرف باحثا عن فابيو ، ثم هجر حظيرته ، وراح يقضى الليل فى غرفة (ستيلا) ولما ضقت به ذرعا ، امرت بشد وثاقه ..

مسكين كلبى (ويفز) .. انه يلقى الان جزاء اخلاصه لى ..

قلت ببطء : اننى احب الكلاب ، وهــذه الحيوانات الامينة تأنس الى غالبا ، فهل استطيع ان ارى (ويفز) هذا ؟

ـ طبعا ، طبعا ، اذهب اليه وحل وثاقه يا جيدو ..

ولكن جيــدو لم يتحرك من مكانه ، بل اعتــدل فى مقعده ، وقال وهو يضحك :

ـ شكرا لك ، هل نسيت يوم حاولت ان احل وثاقه فكاد ان يمزقنى اربا ؟ ارجو اعفائى من هذه المهمــة واسنادها الى كومو ..

فتحولت نينا الى وقالت :

ـ ان (ويفز) كلب هادىء ، ولكنه اصبح فى المــدة الاخيرة ينقم على جيدو لسبب ما .. فهل ما زلت تصر على رؤيته بعد هذا الذى سمعته عنه ؟ تريد ان تراه ؟

حسنا .. يا جياكومو ..

فاقبل الخادم العجوز فقالت له :

ـ خل وثاق (ويفز) يا جياكومو ...

وهنا رمقنى جيا كومو بنظرة تساؤل غريبة .. ومضى لانفاذ امر سيدته ..

وما هى الا بضع دقائق حتى اقبل علينا الكلب يعدو بكل قوته ..

لم يلق بالا الى سيدته .. او الى فيرارى .. بل وثب نحوى توا والقى بنفسه تحت قدمى وراح يبصبص بذنبه سرورا ..

دهشـت زوجتى .. ودهش فيرارى .. ولاحظت دهشتهما .. وقلت بقلة اكتراث :

ـ الم اقل لكما ان الكلاب جميعـا تأنس الى ؟ ان جميع الكلاب تطمئن الى كهذا الكلب ..

وضغطت عنق الكلب بيدى .. فرضـخ .. وتمدد تحت قدمى .. وراح ينظر الى .. وكانما يتساءل عما احدث بوجهى كل ذلك التغيير .. على ان الانسان مهما تنكر .. لا يستطيع ان يخدع الكلب ..

عرفنى الكلب الامين بغير شك .. وقد لاحظت ان وجه (نينا) قد امتقع فجأة .. فسألتها :

ـ هـل انت منزعجـة من هـذا الحيـوان النبيل يا سيدتى ؟ !

فتضاحكت وقالت :

ـ كلا .. كلا .. ولكنى اعلم عن (ويفز) انه يتجنب الغرباء عادة ، فلم اره قط يرحب بانسـان كما رحب بك الان ، وكما كان يرحب بزوجى ، فما اعجب هذا ..

ـ اننى عرفت كثيرا من انواع الكلاب ، واستطعت

ان اتوفر على دراسة طبائعها وغرائزها ؛ فهذه الحيوانات النبيلة تطمئن فى الحال الى الشخص الذي يحبها ..

واطمأن الخائنان الى هذا التعليل ، فزال ما ارتسم على وجهيهما من علامات الريبة والشك ..

قلت وانا انهض :

ـ اود قبل رحيلى ان اشد وثاق هذا الكلب الامين بنفسى ، وانا واثق انه لن يزعجكما الليلة على الاقل ..

فوافقت (نينا) ورافقتنى فيرارى الى حيث توجد حظيرة الكلب ..

وبعد بضع دقائق ، كنت استأذن نينا فى الانصراف .

ـ ١٤ ـ

انقضى شهران بعد ذلك استطعت خلالهما ان اوطد مركزى فى (نابولى) ، وان اجعل من نفسى بفضل ثروتى وسخائى والحفلات والسهرات الحافلة التى اقمتها فى الفندق شخصية من ابرز شخصيات المدينة ، ان لم تكن ابرزها على الاطلاق ..

كنت اذا ذهبت الى دار (الاوبرا) ارتفعت جميع الانظار الى مقصورتى .. واذا قصدت الى النزهة فى يختى احتشد الناس على رصيف الميناء لشهود هذا اليخت الذى يضارع يخت الملك ..

وراح الناس يتشدقون باسمى .. ويروون عن كرمى واسرافى ورفاهيتى احاديث الخرافات .. واساطير الاقدمين .

وقد اشتركت زوجتى وصاحبها بطبيعة الحال فى جميع الحفلات الباهرة التى احييتها .. وكانت (نينا)

قد حاولت اول الامر ان تتخلف معتذرة بنكبتها فى زوجها .. ولكنى اقنعتها بالعدول عن الوحدة .. وحذرتها من ان تدع شبابها وجمالها يذهبان طعمة للاسى والحزن .

واصبحت فى هذه الاثناء من المقربين فى قصر رومانى .. فكانت لى مطلق الحرية فى زيارة القصر فى كل لحظة .. وهكذا استطعت ان اســـتمتع بقراءة كتبى القديمة ورؤية ابنتى .. ومداعبة كلبى الامين ..

وتوثقت بينى وبين ابنتى (ستيلا) روابط قوية .. وكان حبها لى غريزيا بطبيعة الحال .. وكثيرا ما كانت مربيتها (اسونتا) تأتى بهـــا الى فى فنـــدقى ، فاقبلها واجلسها على ركبتى ، واسرد عليها قصة خيالية طابت لها نفسها كثيرا .، هى قصة طفلة وديعة غاب ابوها فجأة ، فكان حزنها عليه عظيما .. ولكن (الملاك) اعاده اليها اخيرا ..

وكنت اشفق اول الامر ان تعرفنى (اسونتا) مربية ابنتى .. لانها كانت كذلك مربيتى .. ولكن ظهر لى ان قوة ابصار المراة المسكينة قد ضـــعفت .. فلم تلاحظ الشبه بينى وبين سيدها السابق ..

على اننى كنت مطمئنا الى اخلاصها لابنتى وحبها لها .. وقد حدث فى شهر ديسمبر اننى لاحظت على (ستيلا) علامات الشحوب والنحافة فلفت (اسونتا) الى هـــذه الظواهر التى تدل على الاعتلال .. وضعف الصحة ، فأجابتنى بأنها لاحظت كذلك هذه الظواهر ، وانها انبأت الكونتس ، ولكن الكونتس لم تقم للامر وزنا ..

وفى احد الايام ، زارنى فيرارى مبكرا خلافا للعادة ، فتهالك على احد المقاعد ، ورايت على وجهه عـــلامات الضجر والاسى ..

سألته :

ــ ماذا بك يا صديقى ، ارى انك متبرم بالحياة ، فهل انت فى ضيق مالى ؟ اذا كان الامر كذلك فان ثروتى كلها تحت تصرفك ..

فابتسم فى قلق واجاب : شكرا يا سيدى الكونت ، الامر غير ما تظن ، اننى فى الحق اتعس مخلوق على ظهر البسيطة ..

ــ آمل الا تكون الكونتس الحسناء قد هزأت بك ، ورفضت الزواج منك ..

ــ الحقيقة يا سيدى الكونت..هى اننى مضطر الى مغادرة نابولى فترة من الزمن ..

ــ احقا ما تقول ؟ ولكن لماذا تبرح نابولى ؟ والى اين تريد الذهاب ؟

ــ ان لى عما يحتضر فى روما .. وقد جعل منى وارثه الوحيد .. وارى من اللياقة ان الازمة فى ساعاته الاخيرة .. سيما وقد كتب الى مسجل العقود يقول ان عمى قد يغير وصيته فى آخر لحظة ..

على اننى لن اغيب عن (نابولى) طويلا .. وربما عدت قبل اسبوعين .. وظهرت على وجهه علامات التردد ..

قلت له :

ــ اكمل حديثك يا صديقى .. هل استطيع ان اؤدى لك اية خدمة .. اثناء غيابك ؟

ــ الواقع ان فى مقدورك ان تفعل الكثير من اجلى وانا اشعر بأننى استطيع الاعتماد عليك ..

كل ما اطلبه اليك هو ان ترقبها وتسهر عليها ..

انت تعرف من اعنى .. انها لن تجد من دونى ودونك

حاميا .. فاسهر عليها .. واحرسها .. وان لك من سنك وصداقتك القديمة للاسرة ما يخولك حق مراقبتها .. ومنع اى رجل آخر من الدنو منها ..

ـ اطمئن يا عزيزى فيرارى .. وثق اننى سأسـهر عليها كأخ .. اننى لم اخلق طبعا لمثل هذه المهمة .. ولكنى اقبلها لتتمكن من الرحيل وانت مرتاح البال .. وسوف تجد اننى كنت باخلاصى ووفائى جديرا بثقتك وصداقتك .. كما كنت انت جديرا بثقة صاحبك فابيو المسكين وصداقته ..

فنظر الى فى ذعر .. وفر لون وجهه .. ولكنه وجد اننى نطقت بهذه الكلمات فى صراحـة وبغير التواء .. فشد على يدى وهو يقول :

ـ شكرا لك .. انا واثق اننى استطيع الاعتماد على شرفك واخلاصك اننى مدين لك بالـكثير ياسـيدى الكونت .. واعلم انه ليس فى مقدورى ان اوفيك حقك من الشكر ..

عدت الى الفندق فى مساء اليوم التالى بعد اذ ودعت فيرارى .. ورأيته يرحل .. وما كدت أصـل الى جناحى الخـاص .. حتى حمل الى خـادمى فنشنز رسالة ..

قرأت اسمى على الغلاف مكتوبا بخط عرفت فيـه خط زوجتى ..

فضضت الرسالة فى الحال .. وقرأت فيها مايلى :

« ارجوك ان تحضر فى الحال ـ ستيلا مريضة .. وتطلب رؤيتك » ..

غاص قلبى بين جنبى وسألت خادمى بصـوت مختنق :

ــ من جاء بهذه الرسالة ؟ .

ــ جاء بها الرجل العجوز .. جياكومو .. كان يبكى بحرقة .. وقد قال ان الطفلة مصابة بحمى فى حلقها .. واعتقد انه يعنى انها مصابة بالدفتريا .. وقد لوحظت الاصابة فى منتصف ليلة امس .. ولكنها اهملت .. فساءت حالة الطفلة اليوم ..

وصلت الى القصر بعد بضع دقائق .. فوجدت الباب الكبير مفتوحا على مصراعيه .. مما يدل على ان القوم كانوا فى انتظار زيارتى ..

قابلنى جياكومو بالباب فسالته : كيف حال الطفلة ؟

فلم يجب .. واكتفى بان هز راسه .. واشار باصبعه الى رجل متقدم فى السن كان يهبط السلم المؤدى الى الشرفة ..

عرفت فى الرجل طبيبا انجليزيا كريما .. معروفا فى تلك الناحية .. فأسرعت اليه .. وسالته عن الطفلة .. فانحنى بى ناحية .. وقال فى حزن واسف ..

ــ الواقع اننا امام حادث اهمال بشع .. فقد كانت الطفلة فى المدة الاخيرة فى حالة ضعف واعياء .. وبالتالى .. عرضة لكل مرض فى الجو .. ولو انهم استدعونى عندما ظهرت الاعراض الاولى .. لامكن انقاذها .. ولكن المربية انبأتنى بانها لم تكن تجسر على ازعاج سيدتها بعد منتصف الليل .. ولولا ذلك لطرقت بابها .. وطلبت اليها ان ترى ابنتها .. وذلك فى الحق من سوء الحظ .. لاننى لا استطيع الان شيئا ..

اصغيت وانا كالمأخوذ ..

اذن كانت الام تنهل من غرامها الاثيم ... بينما الطفلة التعسة تعانى آلم الحمى .. والمرض المميت .. دون ان تجد الى جانبها من يسمعها كلمة عطف وحنان

ترفه من آلامها ..
استطرد الطبيب :
ـ يحسن بك ان ترى الطفلة فى الحال .. اننى مضطر الى التغيب نصف ساعة .. ولكنى ساعود ..
فالقيت يدى على كتفه .. وقلت له : صبرا .. هل يوجد اى امل ؟ .
فنظر الى بحزن واجاب : اخشى الا يكون هنـــاك امل ..
ـ لا يمكن عمل شىء ؟ .
ـ كل ما يمكن عمله هو ان تحاط بالهدوء والدفء..
وقد تركت عندها بعض العقاقير للترفيه من آلامها ..
وانصرف الطبيب .. وذهبت بى احدى الخادمات الى غرفة طفلتى المريضة ..
سألت الخادمة فى همس : أين الكونتس ؟
فنظرت فى دهشة واجابت :
ـ الكونتس ؟ انها فى مخدعها ياسيدى ، وهى لاتفكر فى مبارحته خوفا من العدوى ..
قبحها الله ، انها امراة بلا قلب ..
سألت الخادمة : الم تر ابنتها ؟ .
ـ كلا ياسيدى .. لم ترها منذ مرضها ..
دخلت غرفة (ستيلا) وانا اســير على اطراف قدمى ..
كانت (أسونتا) العجوز جالسة بجانب فراشها .. وعلى وجهها المجعد علامات الهلع والقلق ..
هتف صوت الطفلة فيما يشبه الانين : ابى ..
واعتدلت جالسة فى فراشها بين الوسائد والاغطية .. وهى لامعة العينين محتقنة الوجه لاهثة الانفاس ..

قبلت فمها الصغير الملتهب .. وغمغمت :
ــ يجب على ستيلا ان تلتزم الهدوء والسكينة . . ويجب عليها ان تتمدد فى فراشها ليخف المها . .
فاطاعتنى على الفور .. والقت براسها على الوسادة وهى لاتزال تنظر الى ولا تحول بصرها عن وجهى . . وركعت بجانب فراشها .. بينما اخذت (اسونتا)تبلل شفتيها الجافتين بالماء تارة وبالدواء تارة اخرى . .
واستمرت الطفلة التعسة تعانى الآلم فى رضوخ وصمت .. وانفاسها اللاهثة تزداد سرعة وخفوقا مع مرور الدقائق . .
سالتنى : انك أبى .. ألست كذلك ؟ .
فلم اجبها .. واكتفيت بان قبلت يدها الملتهبة .. قالت :
ــ اشعر بان حنجرتى تلتهب يا ابى .. الا تستطيع ان تفعل شيئا من اجلى ؟ .
فغمغمت :
ــ ليتنى استطيع يا ابنتى .. ليتنى استطيع ان احتمل عنك كل آلامك . .
وفاجأتها فى هذه اللحظة نوبة ألم شديدة .. فراحت تتلوى وتلتقط انفاسها كما يفعل المختنق .. فخففت اليها .. واسندتها الى الوسادة .. فزالت نوبة الالم ولكنها تركت وجهها الصغير ناصع البياض .. وخلفت على جبينها قطرات من العرق . .
قلت لها فى همس .. وبلهجة الضراعة :
ــ يجب الا تتكلمى ايتها العزيزة .. اجتهدى ان تلزمى الهدوء فتذهب عنك آلامك . .
فنظرت الى فى حزن .. ثم قالت بعد دقيقة او

دقيقتين :

ـ قبلني .. فابرأ من مرضي ..

قبلتها .. فإغمضت عينيها .. وانقضت عشر دقائق .. ثم عشرون دقيقة دون ان تبدى حراكا .. وعندئذ اقبل الطبيب .. ونظر اليها ثم نظر الى منذرا .. ووقف عند طرف الفراش ..

وفجاة استيقظت ستيلا فسالتها :

ـ هل تتالمين ايتها العزيزة الصغيرة ؟ .

فاجابت بصوت خافت جعلنا نحبس انفاسنا :

ـ كلا .. لقد زالت آلامي .. يجب أن تلبسني اسونتا ثوبي الابيض مرة اخرى ما دام ابي قد عاد .. كنت اشعر دائما انه سيعود .. ونظرت الى ..

قال الطبيب بصوت خافت يفيض عطفا :

ـ لقد شرد عقلها .. سينتهي كل شيء بعد لحظة..

لم تسمعه (ستيلا) وهمست :

ـ انك لم تذهب لانني كنت اضايقك .. اليس كذلك يا ابي ؟ .

فاجبتها وانا اخفي وجهي بين جدائل شعرها :

ـ كلا .. ايتها الحبيبة ..

فسالت بصوت خافت :

ـ لماذا تضع على عينيك هذا الشيء الاسود البشع !؟ .. دعني ارى عينيك ؟

ترددت .. ولكن هل ارفض رجاءها ؟ ..

نظرت حولي ..

كان الطبيب قد اشاح بوجهه ليخفي دموعه .. بينما دفنت اسونتا وجهها بين اغطية الفراش وراحت تصلي وتبتهل ..

رفعت العوينات باسرع من خطف البرق ..ونظرت الى ابنتي فافلتت من بين شفتيها صيحة سرور خافتة .. وهتفت :

— ابى .. ابى ..

وتمددت بين ذراعى .. وسرت بجسدها الصغير رعدة شديدة .. واقترب الطبيب .. فوضعت العوينات فوق عينى .. وانحنيت مع الطبيب فوق جسم الطفلة ..

شحب لونها .. وتقلصت سحنتها .. وبذلت مجهودا آخر لتتكلم .. وجحظت عيناها .. وتنهدت .. وغاصت فوق كتفى ..

وا أسفاه يا ابنتى الصغيرة المسكينة ..

ضممت جسمها الى صدرى .. وتدفقت الدموع من عينى ..

- ١٥ -

طلبت الى نينا غداة موت الطفلة ان ابرق الى فيرارى بفجيعتها الجديدة .. ففعلت .. وفى احد الايام تسلمت من (فيرارى) خطابا .. وذكرت لى زوجتى انه كتب اليها كذلك .. وزعمت انه عبر فى خطابه عن اسفه الشديد لموت ستيلا ..

بيد انه قال فى رسالته لى غير ذلك ..

كتب الى يقول : « لعلك تستطيع ان تفهم يا سيدى الكونت العزيز ان موت الطفلة لم يحزننى كثيرا .. ولو انها عاشت لذكرنى وجودها دائما باشياء افضل ان انساها .. »

وجاء فى الرسالة كذلك قوله :

« اذا لم يمت عمى خلال اسبوع .. فاننى اضرب بالميراث عرض الافق .. واعود الى نابولى فى الحال.. لاننى اشعر بالوحدة والشقاء بعيداً عن (نيلا) رغم اننى اعلم انك تقوم عنى بحراستها وحمايتها » ..

وقد تعمدت ان اتلو على زوجتى هذه الفقرة الاخيرة بصفة خاصة .. فاحمرت وجنتاها ، وقالت :

ـ اننى ادين لك بالشكر يا سيدى الكونت ، لانك اظهرتنى على مبلغ وقاحة السنيور فيرارى ، وانى ليدهشنى ان يكتب اليك عنى بمثل هذه اللهجة .

لقد كانت صلته بزوجى السابق شديدة ، وهو يتوهم ان هذه الصلة تخوله حق مراقبتى ..

اننى فى الواقع شديدة الاسف اذ افسحت له صدرى اكثر مما يجب . .

ثم استطردت بعد لحظة :

ـ اؤكد لك اننى لا احبه .. انه فظ غليظ القلب .. واذا اسرف فى الشراب اصبح لا يطاق .. فانا اخافه .. ولا احبه .

كان وجهها ممتقعا .. ويداها ترتجفان . .

قلت لها :

ـ يسرنى ان اعلم ذلك .. على ما فيه من ضياع لامال فيرارى المسكين لان فى هذه الحالة . .

وصمت عمدا .. فسألت فى حدة :

ـ لان فى هذه الحالة ؟

ـ فى هذه الحالة يستطيع غيره من الرجال ان يتطلعوا بعين الامل الى الكونتس رومانى المثقفة الحسناء . .

فهزت راسها وقالت فى حزن :

ـ ان غيره من الرجال لن يفعلوا ذلك .. طالما هو يفرض على نفسه واجب حراستى ومراقبتى . . هناك امر واحد استطيعه للتخلص من جراته وقحته.. وذلك ان ابرح (نابولى) قبل ان يعود اليها . .

لماذا ؟ !

فاحمر وجهها واجابت :

ـ لانني اريد أن اتجنبه .. وأقول لك صراحة انه ضايقنى فى المدة الاخيرة .. ثم اننى اخشاه كما قلت لك . .

اننى اشعر بالطمانينة تحت حمايتك .. ولكنى لا استطيع الاستمتاع بهذه الحماية الى ..

حانت الفرصة .. فقاطعتها قائلا :

ـ ولماذا ؟ ان الامر موكول اليك دون سواك ..

فدهشت .. وبلغ من دهشتها انها نهضت قليلا من مقعدها . .

قالت وفى صوتها مزيج من الخجل والقلق :

ـ ماذا تعنى يا كونت ؟ اننى لا افهم . .

ـ اننى اعنى ما اقول يا سيدتى الكونتس .. تقولين انك لا تستطعين ان تستمتعى دائما بحمايتى .. ويخيل الى ان ذلك فى استطاعتك .. اذا اصبحت زوجتى ..

فنظرت الى مبهوتة واستطردت :

ـ انا اعرف بالفارق العظيم بيننا فى السن... واعلم اننى لا استمتع بالشباب او الصحة أو المظهر الذى يحببنى الى النساء ولكننى اعتقد اننى استطيع ان اسعدك . .

فاصفر وجهها ثم احمر .. وبدا عليها انها تفكر....

ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة فوز .. ورمقتنى من

عينيها الواسعتين بنظرة ساحرة . .

اقتربت منى .. حتى احسست بانفاسها الحارة. . وقالت فى رفق :

ــ هل تعنى انك راغب فى الزواج بى ؟

قالت ذلك بصوت موسيقى رقيق .. فمرت بجسدي رعدة خفيفة .. واستولت على رغبة جامحة مجنونة فى ان اضم هذه المخلوقة الساحرة الى صدرى .. وان اطبع على شفتيها الاف القبلات . .

قالت وهى تضحك فى رقة :

ــ عندما رأيتك لاول مرة شعرت باننى ساحبك. . اننى لم احب زوجى قط .. وعلى الرغم من انك تشبه زوجى من بعض النواحى .. وتختلف عنه فى نواح كثيرة .. فاننى احبك كما لم احب انسانا آخر فى الوجود . .

نطقت بهذه العبارة دون ان يصطبغ وجهها بحمرة الخجل ..

ادهشتنى جرأتها .. سألتها :

ــ توافقين اذن على الاقتران بى ؟ .

ــ نعم اوافق .. ولكن اخبرنى .. ان اسمك سيزار .. اليس كذلك ؟ .

ــ نعم . .

ــ اذن فثق ياسيزار اننى ساحملك على ان تحبنى.

والتصقت بى ..وحولت الى وجهها ..وغمغمت. .

ــ قبلنى . .

فقبلت تلكما الشفتين الملوثتين الكاذبتين ...وكان احب الى ان اقبل احدى الافاعى السامة ..

وتناولت يدها .. حيث كان خاتم زواجي الاول

لا يزال يزين اصبعها ووضعت فى ذلك الاصبع بالذات خاتما ترصعه زمرة نادرة ..

كنت انتظر هذا الموقف وقد اعددت له العدة سلفا ..

تاملت زوجتى الخاتم البديع .. وافلتت من فمها صيحة دهشة ..

ــ اواه ياسيزار .. ما ابدع هذه الزمردة .. وما اكرمك على ..

واستندت الى كتفى .. وجعلت تحرك يدها فى الضوء لتستمتع بمشهد الخاتم .. ثم قالت فجأة فى شىء من القلق :

ــ انك لن تنبىء جيدو بزواجنا فى الوقت الحاضر .. اليس كذلك ؟ .

ــ كلا .. لن انبئه بذلك فى الوقت الحاضر .. والا عاد الى روما فى الحال .. ونحن لسنا بحاجة اليه الان ..

صمتت لحظة .. وهى لا تزال مستندة الى كتفى .. ويدها تتحرك بالخاتم امام عينيها .. ثم قالت فجأة :

ــ اريد ان اسألك شيئا .. شيئا تافها .. ولكنه يدخل السرور على نفسى ..

فنظرت اليها متسائلا فقالت :

ــ اريدك ان ترفع هذه العوينات .. اريد ان ارى عينيك ولو دقيقة واحدة ..

فنهضت واقفا بسرعة .. واجبتها ببرود :

ــ سلى اى شىء الا هذا .. ان تعرض عينى للضوء ولو ثانية واحدة يجلب لى آلاما لا تطاق .. فاقنعى بى كما انا فى الوقت الحاضر .. وثقى اننى ساجيبك الى طلبك فى المستقبل القريب ..

فسألتنى بحدة : متى ؟ ؟

فتقدمت اليها .. ولثمت يدها .. واجبتها بصوت حاولت ان يكون هادئا .

ـ فى ليلة زفافنا ..

فاحمرت وجنتاها .. واشاحت بوجهها .. وغمغمت :

ـ ما ابعد هذا اليوم ! .

ـ بل انه اقرب مما تتصورين .. هل توافقين على ان يكون فى الشهر الاول من العام الجديد ؟ .

ـ ولكن لا تنس فجيعتى فى زوجى وابنتى ..

ـ لنتزوج اذن فى شهر فبراير .. فعندئذ يكون قد انقضى ستة شهور على وفاة زوجك ..

فابتسمت واجابت : على رسلك اذن ..

ـ اتفقنا .. والان هل نكتم امر زواجنا عن كل انسان فى الوقت الحاضر ؟ .

ففكرت لحظة .. ثم قالت :

ـ نعم .. لنكتمه فى الوقت الحاضر ..

- ١٦ -

انقضى شهر بعد ذلك .. وفى احد الايام جاءتنى رسالة من جيدو يحمد الله فيها على وفاة عمه .. وعلى فوزه بكل ثروته .. وينبئنى بقرب قدومه ..

قصدت فى الحال الى قصر رومانى .. فرحبت بى (نينا) كالمعتاد ..

قلت لها بعد حديث قصير :

ـ لقد جاءتنى رسالة من السنيور فيرارى .. انه سيعود بعد يومين او ثلاثة ..

فاصفر وجهها .. وتحركت شفتاها كأنها تريد ان تتكلم .. ولكنها لم تقل شيئا ..

استطردت :

ــ اذا كنت تخشين مضايقته .. وتشفقين ان تخرجه خيبة الامل عن اطواره .. فانني انصح لك بالغياب عن (نابولى) فترة من الزمن حتى ينفثا غضبه ..

فى استطاعتك مثلا ان تزورى بعض اصدقائك .. وان تقيمى عندهم بضعة أيام .. وسأذهب بنفسى لمرافقتك ..

ففكرت لحظة اخرى .. ثم نظرت الى فى رضوخ وخضوع .. واجابت :

ــ على رسلك يا سيزار .. اننى اعرف عن السنيور فيرارى انه احمق متهور سريع الغضب ..

واذا سمحت لى فانا اعود الى الدير الذى فيه تعلمت .. انه يقع على بعد سبعة او ثمانية اميال من هنا ..

سأوقف كل وقتى هناك على الصلاة والابتهال ليبارك الله فى زواجى الثانى .

فربت على يدها الصغيرة واجبت :

ــ حسنا تفعلين . اذهبى انت الى الدير وابقى فيه حتى الحق بك .. ونعود سويا الى نابولى بعد مرور العاصفة التى لا بد ان يثيرها الصديق فيرارى .

وعندما عدت الى الفندق .. كنت متعبا منهوك القوى .. فتهالكت على احد المقاعد وقضيت فترة من الوقت فى استعراض خطتى ، والخطوات الباقية للوصول الى انتقامى ، ثم نهضت الى مكتبى وفتحت

درجا فيه واخرجت مسدسين ، دفعتهما الى « فنشنزو » وامرته بتنظيفهما .

ودهش الخادم ، ونظر الى المسدسين بامعان فسألته :

ــ انهما من طراز جيد يافنشنزو اليس كذلك ؟

ــ فاجاب الخادم وهو لا يزال يفحصهما :

ــ نعم ياسيدى ، ولكنهما بحاجة الى التنظيف ..

ــ نظفهما اذن .. فقد احتاج اليهما فى وقت قريب

ولما فرغ من مهمته ، رد الى المسدسين ، وهم بالانصراف

قلت له :

ــ تريث يافنشنزو ..

فنظر الى متسائلا فقلت له :

ــ لقد دلتنى التجارب على انك خادم مخلص يا فنشنزو

فقابل نظرتي بنظرة صريحة

استطردت :

ــ سيأتي يوم قريب اضع فيه اخلاصك فى الميزان

فاجاب :

ــ ليس لك الا ان تامر يا سيدى ، اننى كنت جنديا وقد تعودت الطاعة ، وانا لا اطيعك فقط لانك سيدى ، وانما اطيعك واخلص لك لاننى احبك ، وستجدنى على استعداد لان ابذل حياتى فى سبيلك

وصمت وقد اخجلته حماسته فى التعبير عن شعوره ، ثم احنى راسه

وهم بالانصراف فاستوقفته . وبسطت اليه يدى . وانا اقول فى بساطة :

ـ اذن فصافحني

فتناول يدى ، وقبلها ،وارتسمت على وجهه علامات السرور .

قبل وصول فيرارى بيوم واحد ، تلقيت منه برقية ذكر فيها موعد قدومه ، فاصدرت امرى الى ادارة الفندق باعداد العدة لحفلة كبرى تقام فى اليوم التالى ترحيبا بهذا الصديق العزيز ، وارسلت بطاقات الدعوة الى طائفة من النبلاء المبرزين اتيحت لى فرصة التعرف بهم اثناء اقامتى بالمدينة .

وعنيت بان تكون الحفلة فريدة فى نوعها وحول الساعة السادسة ، بعثت بمركبتى الى المحطة لاستقبال فيرارى .

وقد وجدنى فيرارى فى انتظاره بباب الفندق ، فاكبر اهتمامى بامره ، وشد على يدى بحرارة .

هتف وهو يبتسم : ـ هانذا عدت اخيرا ياعزيزى الكونت كم انا سعيد برؤيتك !

فاصطنعت السرور ، واجبته :

ـ فى استطاعتى ان اقول مثل ذلك ، لقد افادتك الاقامة فى روما كثيرا

وضحك واستطرد :

ـ ولكنى الاحظ ياصديقى العزيز انك ترتدى ثياب السهرة ، فاذا كنت مدعوا الى احدى الحفلات فانني استطيع الانسحاب ..

وكنا وقتئذ قد وصلنا الى الطابق الاول حيث مدت الموائد . فاجال فيرارى البصر حوله .ووقف مشدوها قلت له :

ـ هذه مادبة اقمتها احتفالا بعودتك ..

فنظر الى نظرة شكر ووفاء .. واستطردت :
قلت له :

ــ يسرني انك عـدت يافيراري .. كان شـــوقي لرؤيتك .. لا يقل عن ..
فقاطعني هاتفا :

ــ آه .. وكيف حالها .. وددت لو اراهـا باسرع ما يمكن .. كان بودي ان اذهب الى قصر روماني توا . ولكني جئت الى هنا اولا كما طلبت الى في رسالتك
فاجبته :

ــ ستجدها كعهدك بها .. مثالا للرشاقة والفتنـة والسحر

ــ ومن دعوت الى هذه المأدبة ؟ ان ثياب سهرتي في حقيبتي .. وساعجل بارتدائها .. فمنظر هذه القاعة يجعل اشتراكي في السهرة احب الى من مغازلةالحسان
فضحكت ضحكة خشنة واجبت :

ــ طبعا .. كل رجل بعيد النظر يؤثر اكلة شـهية على صحبة اجمل النساء . تســألني عن ضـيوفي ؟ اعتقد انك تعـرفهم جميعا . فهناك في المدمة الدوق فيليبو ماريتا . والسنيور فراشيتي . والمركيز جيلانو
فضحك فيراري وقال :

ــ ساجد في جيلانو الليلة منافسا خطيرا في احتساء اجود الخمور . ومن ايضا ؟

ــ ثم هناك المركيز دافينكور والكابتن دي هامال .

ــ انهما من نبلاء فرنسا ومن نزلاء هـذه المدينة . ولهما شهرة واسعة في فن المبارزة .. ان اختيارك في الحق عجيب .

ــ لقد فهمت انهما صديقاك . الست انت الـذي

قدمتنى اليهما ؟

فالقى بيده على كتفى وقال :

ـ يجب الا اضيع الوقت . سانطلق فى الحال لاستبدال ثيابى ولكن دعنى اسالك بالله يا سيدى الكونت .. لماذا تعنى بى كل هذه العناية ؟

ـ لماذا ؟ اعلم اذن يا عزيزى فيرارى اننى لست الوحيد الذى يعجب بك .. الست موضع اعجاب الجميع ؟ الم تقل لى ان الكونت فابيو رومانى كان يعتبرك احب الناس اليه واكرمهم عليه بعد زوجته ؟ لماذا تنكر فضائلك التى فى مقدمتها الاخلاص والوفاء ؟

فسقطت يده عن ساعدى . وظهرت على وجهه دلائل الانفعال .

وقرعت الجرس ،فاقبل خادمى فنشنزو وقلت له :

ـ اذهب بالسنيور فيرارى الى الغرفة التى أعددتها له ، فى جناحى الخاص .

وعاد فنشنزو بعد لحظة ، فدعوته الى ، وانتحيت به ناحية ، وقلت له :

ـ هل رايت السنيور فيرارى ؟

فنظر الى فى دهشة واجاب :ـ طبعا ياسيدى الكونت !

ـ حسنا ، انه سيكون جارى على مائدة الطعام ، وستكون مهمتك ان تقف خلفنا ، وكلما افرغ كأسه فى جوفه ، فعليك ان تسارع الى ملء الكأس ، هل فهمت

ـ فهمت ياسيدى

وفى الساعة الثامنة تماما ، انتظم القوم حول الموائد ، وجلس فيرارى الى يمينى والكونت دافينكور الى يسارى . وبدأ الخدم يملأون الكؤوس ويقدمون

الى المدعوين اشهى انواع الاطعمة ..

ومن نافلة القول ان اصف روعة المأدبة وفخامتها ، وضروب الحديث التى تناولها القوم ، وبحسبى ان اقول انها كانت مأدبة عظيمة يسودها الصفاء والمرح .

وقد فعل (فنشنزو) ما امرته به .. فلازم فيرارى كظله .. ولم يرفع عينيه عن كأسه .. وكلما فرغت الكأس ، ملأها باسرع من لمح البصر .

ولما اذركت انه شرب حتى ثمل .. نهضت واقفا .. وقلت احدث ضيوفى :

ـ ايها السادة .. معذرة اذا قطعت حبل احاديثكم الممتعة .. ولكنى ارى الفرصة سانحة لانهى اليكم نبأ اشعر بانه سوف يزيدكم سرورا

فصفق المدعوون وراحوا ينظرون الى فى فضول .. استطردت :

تعلمون ايها السادة اننى اقمت هذا الحفل خصيصا للترحيب بصديقى الحميم السنيور فيرارى .. وكان من بواعث سرورى انكم لبيتم دعوتى اليها .. ولما كان من المحتمل ألا تجمع بيننا فى وقت قريب حفلة خاصة يسودها جو من الوئام والصداقة كهذه الحفلة .. فاننى انتهز الفرصة لاكشف لكم عن سر يتصل بسعادتى الشخصية ..

* * *

ما اريد ان اقوله لكم .. هو اننى رغم شيخوختى وتقدمى فى السن ورغم ضعف عينى .. قد صادفت ملاكا فى صورة امرأة .. وقد وجدت هذه المرأة ــ وهو

ما يدعو الى العجب ـ انني لست مخلوقا مقيتا يثير
يثير النفور كما كنت اعتقد .. فرضيت بى زوجا ..

* * *

وصمت .. فساد السكوت
وتحرك فيرارى فى مقعده بقلق وخيل الى انه يهم
بالوقوف ليتكلم .. ولكنه عدل عن ذلك ،وامتقع وجهه
وفجأه انطلقت آلسنة سائر المدعوين ـ ما عدا
فيرارى ـ بالتهنئة .. وصاح الشيفالييه مانشينى ـ
احد المدعوين :
ـ ودع العزوبة اذن ياكونت .. وعلينا نحن ان
نودع امثال هذه الحفلة الباهرة .
وقال الدوق دى ماريتا :
ـ انك ستشرفنا طبعا بذكر اسم الملاك الذى وقع
عليه اختيارك لكى نشرب نخب سعادتكما .
فقال فيرارى بصوت اجش :
لقد كدت القى هذا السؤال ، لان من المحتمل الا
يكون احدنا يعرفها .
فتحولت اليه ، واجبته ببرودة وانا ابتسم :
ـ بل انكم جميعكم تعرفونها ، وتعرفون اسمها
ثم رفعت كأس الشمبانيا واستطردت بصوت
مرتفع :
ـ ايها السادة ، لنشرب نخب صحة خطيبتى ،
الكونتس رومانى ..
فصرخ فيرارى :
ـ يالك من كاذب منافق !
وثارت ثائرته ، والقى بكأس الشمبانيا فى وجهى
وباسرع من لمح البصر ، شاعت الفوضى ، ونهض

جميع المدعوين عن مقاعدهم وداروا بنا

وقفت صامتا ، منتصب القامة ، ولم افعل اكثر من انني اخرجت منديلي ، وازلت به عن ثيابي ما علق به من قطرات الشمبانيا.

صاح الكابتن دي هامال :

ــ هل جننت يافيراري ؟ هــل تعرف ماذا فعلت ؟

اما فيراري فانه راح ينظر حــوله كوحش وقــع في فخ .. وقد احتقن الدم في وجهه وانتفخــت شرايين جبينه ..

صاح وهو يصرف باسنانه :

ــ ايها الكاذب المنافق .. انك سرقتها .. وخدعتني .. لكنك ستدفع حياتك ثمنا لخيانتك .

فاجبت :

ــ لا يوجد لما فعله هذا السيد وقاله سوي جواب واحد .. فهل تتفضل يا سيدى المركيز دافينكور بان تكون شاهدى ؟

فاحني المركيز قامته واجاب :

ــ انني اتشرف بان اكون شـــاهدك يا كونت . .

فاجال فيراري البصر حوله ثم قال :

ــ هل تكون شاهدى ياكابتن مانشيني ؟

فهز الكابتن كتفيه واجاب :

ــ يجب ان تعفيني من هــذه المهمة .. فضــميري لا يطوع لي ان اقف الي جانبك بعد هذا الــذي فرط منك .. وسيكون من بواعث سروري ان اكون الشاهد الثاني لســيدي الكونت .. اذا سمح لي بــذلك . .

فأحنيت قامتي باحترام .. ونظرت اليه شـــاكرا .

وعندئذ تحــول فيراري الي صــديقه دي هامال .

وطلب اليه ان يكون شاهده .

ولكنه اعتذر وكذلك اعتذر سائر المدعوين .. فعض فيرارى على شفتيه .. وشعر فى قرارة نفسه بالمذلة والهوان .

واراد المركيز دافينكور ان ينقذ موقف فيرارى ، فاقترب منه .. وهمس فى اذنه كلاما ، فاطرق فيرارى براسه .. ثم انطلق من المكان لا يلوى على شىء .

وهنا اشرت الى خادمى فنشنزو ، وهمست فى اذنه :

ـ تعقب هذا الرجل ، وحذار ان يغيب عن عينيك

وتحول المركيز دافينكور الى وقال :

ـ سيبحث غريمك عن شاهديه ، ويأتى بهما الى هنا ، ففى استطاعتنا الان ان نتفاهم حول بعض النقط التمهيدية ، وقد تم الاتفاق فعلا بينى وبين زميلى الكابتن مانشينى على ان تكون المبارزة هذا فى الساعة السادسة صباحا فهل يلائمك هذا الموعد ؟

فاحنيت قامتى موافقا

استطرد المركيز :

ـ وبما انك الطرف المهين يا سيدى السكونت ، فان لك حق اختيار السلاح .

فاجبت :

ـ افضل ان تكون المبارزة بالمسدسات

ـ هذا حسن .. وما رايك فى ان يكون ميدان المبارزة الارض الفضاء الواقعة بين قصر (جيرلاندى) وقصر آل رومانى ؟

فاحنيت راسى موافقا . ثم اجلت البصر حولى بين المدعوين .. وقلت بصوت هادىء :

ـ ايها السادة .. يؤسفنى ان ينتهى اجتماعنا على هذا النحو ولكنى اشكر لكم ما ابديتموه نحوى من عطف واخلاص .. واعتقد ان هـذه لن تكون آخر حفلة اتشرف بدعوتكم اليها .. فاذا شاءت الاقدار ان اخرج من مبارزة الغد سالما .. فاننى ارجو ان اراكم جميعا فى حفلة زواجى .. حيث آمل الا يعكر صفونا معكر .

والان استميحكم عذرا فى الانسحاب .. وطابت ليلتكم .

وما كدت اصل الى غرفتى .. حتى لحق بى خادمى فنشنزو

سألته وانا ابتسم : ماذا عندك من الانباء ؟

ـ لقد انفذت امرك ياسيدى .. وتبعت السنيور فيرارى .. وهو الان فى منزله .

وسرد على كيف انه تعقب فيرارى من الفندق الى قصر رومانى .. وكيف قضى فيرارى وقتا طويلا وهو يقرع باب القصر حتى فتحه جياكومو العجوز فسأله عن الكونتس بلهجة ارعبت الخادم .. واجابه هذا الاخير بان سيدته ذهبت الى الدير .. فلوح بقبضته مهددا .. وقال له « قل للشقية متى عادت اننى جئت لاقتلها » .

ثم تركه ومضى فى الطريق الى المدينة وهو يعدو كالمجنون ..

وقد اصغيت الى قصة خادمى فى هدوء . ثم قلت لـه :

ـ انك احسنت صنعا يا فنشنزو .. لقد اهاننى هذا الفتى كما رأيت ، اهانة لا تغسل الا بطريقة واحدة

.. وقد تم الاتفاق على هذه الطريقة فعلا .. فعليك اذن ان تعد المسدسين اللذين نظفتهما .

- ١٧ -

نمت تلك الليلة نوما هادئا عميقا لم استمتع بمثله منذ خرجت من القبر .

وحول الساعة الخامسة .. ايقظني خادمي . فارتديت ثيابي .. وتناولت قدحا من القهوة .. وقصدت في مركبتي الى المكان المتفق عليه .. وبصحبتي خادمي ومعه المسدسان .

وهناك وجدت المركيز دافينكور والكابتن مانشيني في انتظاري ..

وبعد قليل اقبلت علينا احدى المركبات .. وهبط منها فيراري وشاهداه .. وبعد لحظة اخرى اقبل الطبيب ..

واجتمع الشهود الاربعة وسط الميدان .. ودار بينهم حديث قصير ثم اقبل على شاهداى .. وقال المركيز : — هيا :

وخلع فيراري قبعته ومعطفه .. فلاحظت انه لايزال في ثوب السهرة ..

كان ممتقع الوجه .. تحيط بعينيه هالتان سوداوان تناول المسدس الذى قدمه اليه احد شاهديه وفحصه بامعان .. ولمعت عيناه ..

اما انا فقد خلعت قبعتي ومعطفي والقيت بهما الى خادمي .. ووقفت امام فيراري . في المكان الذى اتفق عليه الشهود

هتف الكابتن مانشيني بصوت مرتفع :

ـ هل انتما على استعداد ؟
فاجاب شاهدا فيرارى : ـ نعم .
فاخرج المركيز دافينكور منديله

* * *

وهنا رفع فيرارى راسه . ونظر الى لاول مرة يا الهى . .
لن انسى ما حييت امتقاع وجهه . . والنظرة الحائرة المجنونة التى حدجنى بها .
حرك شفتيه كمن يريد ان يقول شيئا . . ولكنه ترنح فى مكانه ولزم الصمت .

* * *

صاح المركيز : ـ واحد فرفعنا المسدسين فى ايدينا
هتف المركيز : ـ اثنان . .
وهنا صوب فيرارى مسدسه نحوى . فابتسمت بكبرياء . ولاحظت ان يده اهتزت
صاح المركيز : ـ ثلاثة . .
والقى بمنديله فى ذات الوقت الى الارض . . فاطلقنا مسدسينا فى لحظة واحدة . . وشعرت برصاصة فيرارى تمر فوق كتفى .

ثم تبدد الدخان . . ورايت فيرارى لا يزال واقفا امامى وفى عينيه تلك النظرة الشاردة .
وما هى الا لحظة . . حتى سقط المسدس من يده . . ثم افلتت من فمه صيحة الم . . وترنح وسقط على وجهه . .
اسرع اليه الطبيب . . ومدده على ظهره .

كان فاقد الحركة .. وقد بقيت عيناه السوداوان مفتوحتين .

احطنا به جميعا .. ورأينا قميصه ملوثا بالدم
قال الطبيب :

ـ ان اصابته مميته .. فقد اخترقت الرصاصة رئته بالقرب من القلب .. وسيموت بعد عشر دقائق على الاكثر .

ثم تحول الى واستطرد :

ـ لقد غسلت الاهانة التى لحقتك يا سيدى ..

وساد الصمت لحظة ..

وتحركت عينا الجريح فى محجريهما .. وراح ينقل البصر بيننا .. واستقرت عيناه اخيرا على وجهى .. وفتح فمه ليتكلم وعندئذ اسرع الطبيب فصب فى فمه سائلا منعشا .

وقد رد اليه السائل قواه .. فرفع راسه بعد جهد .. وقال بصوت خافت :

ـ دعونى اتحدث اليه .

واشار الى باصبعه واستطرد بصوت الحالم :

ـ اليه .. اليه .. اليه وحده .. على انفراد .

فابتعد الاخرون وعلى وجوههم علامات الانفعال والتأثر الا أنا فقد دنوت منه . وركعت بجواره .

التقت عينانا .. فهمس : قل لى بالله .. من انت؟

فأجبته بصوت خافت ولكنه رزين :

ـ انت تعرفنى ياجيدو .. انا فابيو رومانى .. الذى كنت يوما تدعوه صديقك .. انا فابيو رومانى الذى سرقت زوجته .. ودنست عرضه .. انظر الى جيدا .

ورفعت العوينات السوداء .. ونظرت فى وجهه.. ثم اعدتهما .

هتف بصوت متقطع :

ـ فابيو ؟ .. فابيو ؟ انـه مات .. وقـد رايته فى تابوته ..

فازددت منه اقترابا ، وقلت بصوت جلى :

ـ اننى دفنت حيا .. هل فهمتنى ياجيدو ؟ اننى دفنت حيا .. ولكنى خرجت من قبرى ، ولا يهم ان تعرف كيف ، نعم خرجت من قبرى ، وعدت الى بيتى، ورايت شرفى يداس وعرضى يدنس ، هل تريد انتعرف المزيد ؟

فمرت بجسده رعدة قوية ، وحرك رأســـه ذات اليمين وذات اليسار ، وتجمعت حبـات العرق فوق جبينه ، وســال الـدم من فمه ، فجففته بمنـديلى ، وابتسمت كما تبتسم المراة وهى على شفا البكاء .

همست : هل تعرف المر الذى تحيط به اشجـار البرتقال فى حديقتى ؟ اننى رايتك هناك ياجيدو ، ورأيتك معها ، فى ذات الليلة التى بعثت فيها من الموت ، رايتها بين ساعديك ، ورايتك تقبلها ، كنتما تتحدثان عنى ، وكنت تعبث بالعقد الذى يزين صدرها الفاتن ..

وهنا ظهرت فى حركاته بوادر التشنج وهتف بصـوت اجش :

ـ اخبرنى . اخبرنى بسرعة . هل . هل عرفتك ؟

فاجبته ببطء :

ـ كلا .. انها لم تعرفنى بعد .. ولكنها ستعرفنى قريبا عندما اتزوجها .

فارتسمت فى عينيه نظرة ذعر .. وهتف :

ــ آه .. يا الهى .. هذا مخيف .. هــذا مخيف
وانبثق الــدم من فمه .. فمنعــه من الــكلام ..
وازداد لونه شحوبا .. وابطأت تنفساته .. واخــذت
تضعف بالتدريج .

نظر الى نظرة مخيفة .. وراح يحرك يديه كانــه
يبحث عن شيء مفقود فامسكت باحدى هاتين اليدين
الشاردتين وضغطت عليها .. واستطردت فى لطف :
ــ ان كل شيء قد انتهى الان ياجيدو .. انها عبثت
بنا معا .. فليغفر لك الله كما اغفر لك ..

فابتسم ولمعت عيناه .. وانبسطت اسارير وجهه.
رأيت فى عينيه تلك النظرة الساذجــة التى طالمــا
حببتنى اليه فى ايام الشباب .

غمغم :

ــ نعم كل شيء قد انتهى الان .. يا الهى . فــابيو
اصفح ..

وتقلصت عضلاته .. وانقلبت سحنته .. وخرجت
من بين شفتيه آهة محــزنة .. مخيفة .. واســـلم
الروح ..

وسقطت اشعة الشمس المشرقة على جدائل شعره
الجميل .. وعينيه المفتوحتين ..

احسست وانا انظر اليه بغصة تــكاد تخنقنى ..

كانت يدى لا تزال ممسكة بيد صديقى .. وعدوى
.. فشعرت بالبرودة تدب فيها .. ورأيت فى احــد
اصابعها شيئا يتألق .. هو الخاتم الذى ورثته عــن
اسلافى واعطته له زوجتى ..

اخذته من اصبعه .. ثم قبلت تلك اليد الفاقــدة
الحياة .. قبلتها فى عطف واحترام .

وسمعت عندئذ وقع خطوات تقترب .. فنهضت واقفا . .

وتابط مانشيني ساعدى وهو يقول :

ـ يجب ان تعود الى فندقك يا صديقى .. انك شاحب الوجه ويخيل الى انك مريض .

- ١٨ -

عندما عدت الى الفندق فى اليوم التالى .. وجدت فى انتظارى رسالة وحزمة صغيرة . .

كانت الرسالة من المركيز دافينكور .. وفيها ينبئنى بان جثة فيرارى قد ووريت فى مقبرة قريبة من مدافن اسرة رومانى .. لانه كان صديقا حميما للكونت فابيو .. وقد عبر مرارا على مسمع من بعض اصدقائه عن رغبته فى ان يدفن هناك .

اما الحزمةالصغيرة فقد قال عنها المركيز فىرسالته:

« لقد بعث اليك كذلك بحزمة صغيرة تتضمن طائفة من الرسائل وجدت فى جيب فيرارى . وبفض احدى هذه الرسائل للوقوف على ارادته ورغباته الاخيرة .. وجدنا انه من الضرورى لك ان تعلم بمحتويات هذه الرسائل .. ليس فقط لانك الزوج المنتظر للسيدة التى كتبت الرسائل .. وانما كذلك على سبيل الانصاف للشاب المتوفى .

« فاذا كانت جميع الرسائل على نحو الرسالة التى قراناها .. فلاشك ان فيرارى كان على حق فى ان يعتبر نفسه قد غبن واهين وخدع . بيد اننى اترك لك تقدير ذلك .. واذا سمحته لى بابداء راى بدافع صداقتى لك .. فاننى انصح لك بان تعير هذهالرسائل

ما تستحق من العناية والاعتبار قبل ان تبرم الزواج الذى اشرت اليه ليلة امس .

« فليس من العقل ان يسير الانسان على حافة الهاوية وهو مغمض العينين .. »

« لقد مر حادث المبارزة فى هدوء .. وحرصت على الا يثير اية فضيحة » .

وضعت رسالة المركيز جانبا . وتناولت الحزمة ومزقت غلافها .. فوجدت بها طائفة من الرسائل .. قد تلوثت اطرافها جميعا بدم فيرارى .

كانت تنبعث من الرسائل رائحة عطرية اعرفها قراتها رسالة تلو اخرى .

كانت كلها من (نينا) وقد بعثت بها الى فيرارى اثناء وجوده فى روما .. رسائل غرامية ملتهبة حافلة بأرق عبارات الحب ، ووعود الاخلاص والوفاء .. ولفت نظرى فى احدى هذه الرسائل عبارة بعينها :

« اواه يا احب الناس الى .. اننى اريدك على ان تكون عشيقى دائما كما كنت فى حياة فابيو .. »

قرات هذه العبارات بامعان .. وادركت معناها .. ادركت انها كانت تريد الاقتران بى .. والاحتفاظ بجيدو

وانصرف ذهنى الى نصيحة صديقى المركيز دافينكور :

« ليس من العقل ان يسير الانسان على حافة الهاوية وهو مغمض العينين » .

هذا صحيح .. ولكن اذا كان الانسان مفتوح العينين ، واذا كان قابضا على عدوه من عنقه ، الاتكون حافة الهاوية فى هذه الحالة مكانا مريحا لأنه يستطيع

ان يقذف بعدوه الى قرار الهاوية دون ان يعلم احد ؟

- ١٩ -

انقضت الايام والاسابيع والشهور .. واقبلت ليلة زفافى

كان مقررا ان يكون الاحتفال بالزواج خاصا ماامكن .. واتفقت مع (نينا) على ان يكون الاحتفال فى الفندق الذى اقيم به ..

ذهبت لزيارتها فى اليوم السابق للزفاف .. لاتفق معها على الاجراءات الاخيرة .. وانتهزت الفرصة . .. وقدمت اليها طائفة اخرى من المجوهرات والاحجار الكريمة .. لتتم بها زينتها فى ليلة الزفاف .

وكان اعجابها بالاحجار الكريمة عظيما .. فوقفت لحظة مشدوهة لا تستطيع ان تجد كلاما تعبر به عن اعجابها . .

قالت اخيرا : ـ يالله ياسيزار .. انك تجود على بهذه المجوهرات الثمينة كانها ليست ذات قيمة عندك .

فهززت كتفى وقلت :

ـ ان عندى من امثال هذه الاحجار شيئا كثيرا ، عندى منها كنز يسيل له لعاب اية حسناء .

ـ واين هذا الكنز ايها البخيل ؟

وضحكت ضحكة عذبة . فاجبتها :

ـ انه فى مكان قريب . واذا شئت ذهبت بك اليه غدا . بعد الزفاف . .

ـ يا الله .. لعل عندك قبوا تحتفظ فيه بكنوزك كالبخلاء الذين نسمع عنهم فى الاساطير . .

فابتسمت واجبت :

ــ ربما .. هناك اشياء لا يأمن عليها الانسان حتى فى البنوك .. والاحجار الكريمة التى املكها هى من نوع لا يقدر بثمن ..

قالت وهى ترنو الى بعينيها الساحرتين :

ــ لاتنس ان عليك أن تفى غدا بوعدين

ــ همــا ..

ــ هما ان تخلع عويناتك وتدعنى اراك على حقيقتك .. وان تذهب بى لاشهد كنوزك الثمينة ..

فاجبتها وانا ابتسم :

ــ سأكون عند وعدى لك .

جاءت ليلة الزفاف أخيرا كما قلت

وكانت حفلة ظلت مدار حديث القوم فى نابولى وقتا طويلا .. حفلة كانت (نينا) شمسها المشرقة . ونجمها السـاطع .

كان يبدو على (نينا) فى تلك الليلة انها اسعد مخلوقة على ظهر الارض .

كانت قبلة انظار الرجال . وموضع حسدالنساء..

همست فى اذنى وهى تراقصنى .. وترقب بـعين الاعجاب تألق الاحجار الكريمة التى تزين صدرهــا واصابعها ..

ــ لا تنس وعدك لى ..

كان كل همها ان تضع يدها على كنوزى

اجبتهـا :

ــ وانا على استعداد للوفاء .. ولكن متى ؟

ــ لنذهب الان .. ان المدعوين فى شغل بالرقص واذا لم يكن المكان بعيدا فاننا نستطيع العودة فى الوقت المناسب لتصدر مأدبة العشاء .

فاجبتها هسا : ـ ان المكان ليس بعيدا .
ـ اذن نستطيع ان نتسلل الان .. دون ان يشعر بنا احد . . .

لنخرج من الباب الخلفى للفندق .. سيكون غيابنا ثم عودتنا مفاجاة طريفة لمدعوينا .
ـ على رسلك اذن .. انتظرينى عند الباب الخلفى.
عدت الى غرفتى وانا ارتجف من فرط الانفعال .
حانت الساعة اخيرا .

اغلقت باب الغرفة .. واسرعت الى ثياب السهرة فاستبدلت بها ثوبا آخر عاديا .. والى جميع اوراقى ورسائلى .. وكل مايمت الى فاجعة حياتى بسبب فألقيته فى الموقد .

ووقع بصرى على خنجر مرصع بديع .. فتناولته فى شىء من التردد ، وجردته من غمدة .. ولمست نصله
ترى هل آخذه معى ؟
نعم .. فربما احتاج اليه

وضعته فى جيبى .. ووضعت فى جيبى كذلك رسائل نينا الى فيرارى .. وبعد ان عنيت بازالة كل اثر يدل على .. وقفت أمام المرآة .. ورفعت عويناتى .. ونظرت الى نفسى نعم .. اننى مازلت فابيو رومانى .. رغم بياض شعرى .. واى انسان رآنى عن كثب سوفه يعرفنى .
كدت اقهقه ضاحكا .

لقد نجحت الخطة التى وضعتها للانتقام الى ابعد حدود النجاح وسأضرب الان الضربة الاخيرة ...
واسرعت الى الباب الخلفى للفندق دون ان الفت الى نظر احد ..

وجدتها هناك فى انتظارى .. فقبلتها .. كما يقبل الرجل المرأة التى يمقتها وهمست :
— عفوا اذا كنت قد ابطأت .. هل انبأت وصيفتك الجديدة بهذه النزهة الليلية ؟
— كلا .. لقد وجدتها تراقص الخدم فتركتها تلهو
فقلت وأنا أتنفس الصعداء :
— حسنا فعلت ...

وفتحت الباب .. وتسللت منه مع نينا .. دون أن يرانا أحد ...
سرنا بضعة أمتار .. ثم استدعيت احدى مركبات الاجرة .. واومات الى نينا بالركوب .. فأطاعتنى ..
وقلت للسائق : **اذهب بنا الى فيلا جواردا .**
سألتنى : ما معنى (فيلا جواردا) ؟
— انه منزل قديم .. كائن بالقرب من المكان الذى نقصد اليه ..
واجتذبتها الى .. وضممتها الى صدرى .. وهمست فى أذنها :
— انك اصبحت لى أخيرا .. لى وحدى .. والى الابد
فرفعت الى وجهها . وومض فى عينيها بريق الفوز . والتقت شفتاها الباردتان بشفتى الملتهبتين .
نعم . قبلتها . ولماذا لا اقبلها ؟
ألم تكن لى كاية جارية يبتاعها الانسان بماله ؟
كانت الليلة عاصفة باردة .. فابتعدت بنا المركبة واخذت أنغام الموسيقى المتصاعده من قاعات الفندق تتضاءل . حتى احاطنا الليل أخيرا بحلكته وسكونه .. فلم نسمع غير وقع حوافر الجواد . وزئير العاصفة فى غطاء المركبة .

وخرجت بنا المركبة من المدينة • وانحدرت فى طريق الضواحى .. واخذت تجتاز ممر شديد الوعورة .. فسألنى الحوذى متبرما :

ــ هل اواصل السير فى هذه الطريق الصخرية ؟

ــ كلا . لا حاجة بك الى ذلك . اننا اقتربنا . ونستطيع ان نواصل السير على اقدامنا . ولكن يخيل الى انك شديد الرغبة فى العودة الى نابولى بأسرع ما يمكن .

فأجاب الرجل فى صراحة :

ــ هذا صحيح يا سيدى .. اننى ارجو ان افيد شيئا من الريح هذه الليلة .. بفضل ضيوف الكونت اوليفا ..

فقلت وانا انقده اجره :

ــ ان الكونت رجل غنى .. ليت لى مثل ثروته ..

فابتسم الرجل ابتسامة ادركت منها انه لا يرتاب فى حقيقة شخصيتى .

واصلت السير مع زوجتى على الاقدام . وكانت الريح تعصف بشدة .

فقالت نينا :

ــ كان من الافضل ان ينتظرنا الحوذى حتى ليعود بناء .

ــ كلا ايتها العزيزة .. اننا سنعود من طريق اخرى . هلمى بنا .

وانتهينا بعد بضع دقائق الى (كامبو سانتو) .. اول حدود المقابر ــ أول الحدود بين مدينة الاحياء ومدينة الموتى •

سألتنى نينا فى حدة .

ــ ما هذا المكان ؟

ـ لم تكن فى حياتها قد زارت المقابر .. لانها كانت تفزع من الموتى ..

اجبتها بصوت رن فى اذنى غريبا خشنا :

ـ هنا أخفى كنوزى .. تعالى ايتها الحبيبة .. لا تخافى مادمت معى .

وكان القمر قد توارى خلف السحب واظلم الجو .. ولكنى لم اضل الطريق الى مدفن آبائى وأجدادى .. المدفن الذى وضعت به حيا ..

فتحت الباب بمفتاح جئت به معى ، وهممت بالدخول ، وأنا ممسك بيدها ، ولكنها حاولت التملص من قبضتي .. وهتفت بصوت خافت :

ـ الى أين انت ذاهب بى ؟ اننى خائفة

فبذلت قصارى جهدى لكى يعود صوتى طبيعيا هادئا . وقلت لها :

ـ تعالى .. ليس ثمة ما يدعو الى الخوف

ورفعتها بين ساعدى .. وهبطت بها درجات السلم حمدا لله ، لقد أصبحنا فى جوف المدفن اخيرا ..

عدت ادراجى الى الباب .. واغلقته . وما كدت أضع المفتاح فى جيبى حتى تفجرت من فمى ضحكه رددت جدران المدفن صداها ..

صاحت زوجتى بصوت مرتفع :

ـ لماذا تضحك هكذا ؟ انها ضحكة مخيفة ..

ـ احقا تقولين ؟ انا آسف .. انما اضحك لان نزهتنا الليلة كانت بديعة .. أليس كذلك ؟

وضممتها الى صدرى . وقبلتها بخشونة . وهمست :

ـ سأحملك الآن بين ساعدى .. ان عينى قد الفتا الظلام .. سأحملك الى حيث توجد كنوزى .. وأية كنوز ؟

ستكون كلها لك أيتها الزوجة المحبوبة ..

وحملتها بين ساعدي كما أحمل طفلا .. ولا أذكر هل قاومتنى فى تلك اللحظة او لم تقاوم ؟ كل ما أعلمه اننى حملتها دون ان اشعر بثقلها ، الى ان توسطت المدفن .. وهناك تركتها .. فأمسكت بساعدى ، وصرخت :

ــ اى مكان هذا ؟ واين النور ؟

فلم أجب .. وابتعدت عنها قليلا .. وأخرجت من جيبى علبة ثقاب واشعلت ست شموع كبيرة كنت قد اعددتها .

بهرها الضوء بعد ذلك الظلام الدامس . فلم تر لاول وهلة فى اى مكان هى .. ولما الفت عيناها الضوء ورأته ما يحيط بها من توابيت .. هرولت نحوى .. وتعلقت بساعدى فى خوف وفزع . وراحت تصيح وهى تحاول ان تخفى وجهها فى معطفى ..

ــ اذهب بى من هنا .. اذهب بى من هنا .. هذه مقبرة .. يا الهى .. هذا مكان للموتى .. اسرع .. اسرع .. اخرج بى الى الهواء .

فلزمت الصمت .. وبقيت واقفا كالصنم لا اتحرك .. فهالها صمتى وصرخت :

ــ سيزار .. سيزار .. تكلم .. ماذا اصابك .. ولماذا جئت بى هنا ؟ ضمنى الى صدرك .. وقبلنى .. وقل شيئا .. قل اى شيء .. فقط تكلم .

فدفعتها عنى بيد ثابتة . وقلت :

ــ لقد صدق حدسك ، هذه مقبرة .. مقبرتكم ياسيدتى العزيزة .. مقبرة أسرة روماني ..

فنظرت الى فى خوف وعجب .

استطردت اقول بهدوء وبطء :

. هنا يرقد اسلاف زوجك .. وهنا سترقدين ..
هنا دفن منذ ستة شهور زوجك السابق قابيو رومانى
فلزمت الصمت .. وظلت تنظر الى فى هلع
ثم تحركت شفاها أخيرا وقالت بصوت أجش :
ـ لابد أنك جننت :

ثم لاحظت انني لم اتحول عن جمودى . فأمسكت بساعدى وقالت مستعطفة :

ـ هلم بنا . هلم بنا فى الحال .. دعنا نبرح هذا المكان المخيف . أما المجوهرات ، فلتبق حيث هى . لن اتحلى بها ولو أعطيت ملك الارض . تعال .

فأمسكت بساعدها بقوة . وحولت وجهها شطر شيء فى احد الاركان شطر تابوتى المحطم . وقلت لها فى همس مخيف .

ـ انظرى ما هذا ؟ تأمليه جيدا ! انه تابوت . تابوت انسان مات بوباء الكوليرا . اقرأى ما كتب عليه . ولا تدهشي . لقد كتب عليه اسم زوجك . ان زوجك دفن فى هذا التابوت ، ولكن كيف حدث ان فتح التابوت واين هو ؟

رأيتها تترنح ، وأدركت مبلغ الذعر الذى استولى عليها ورفضت ساقاها ان تحتملاها .. فجثت على الارض .. وراحت تردد بطريقة آلية :

ـ أين هو ، أين هو ؟

فصرخت بصوت رددت جدران المقبرة صداه .

ـ نعم .. اين هو . أين ذلك المغفل المخدوع الذى خانته زوجته تحت سقف بيته ؟ أين هو ؟
انه هنا . هنا

واجتذبتها حتى أوقفتها على قدميها . واستطردت بصوت حاد :

— وعدتك بان تريننى الليله كما انا على حقيقتى ، وهاأنذا أبر بوعدي ..

انظرى الى يا نينا . انظرى الى أيتها المرأة التى تزوجتنى مرتين ، انظرى الى ، الا تعرفين زوجك ؟

ورفعت العوينات عن عينى .. ووقفت امامها على حقيقتى .

وخيل الى أن مرضا مقيتا قد أصابها فجأة .. فأحال جمالها الى شىء بشع مقيت .

نعم . ظهرت عليها فجأة علامات الشيخوخة ... واستحالت حمرة شفتيها الى زرقة .. ونفرت حدقتاها من محجريهما .

صرخت بصوت خالانين :

— كلا .. كلا .. كلا .. انك لست فابيو .. يستحيل ان تكون هو .. ان فابيو مات .. مات ..

وكفت عن الكلام وهى لاهثة الانفاس مرتجفة الاوصال ، وراحت تصعدنى بعينين واسعتين مرعوبتين ، ولاشك انها استوثقت من الحقيقة المخيفة .. لانها مالبثت ان دفنت وجهها بين كفيها . كأنما لتحجب عن عينيها مشهدا لا تريد أن تراه .

ضحكت باحتقار وصرخت :

— هل تعرفيننى الان ؟ لقد طرأ على بعض التغيير حقا ..

كان شعرى اسود — اذا كنت تذكرين — فبيضته اهوال ليلة ستمر بك قريبا ليلة مثلها .

ولكنى أعتقد برغم هذا انك تعرفيننى .. نعم .. انك

تعرفينني . ويسرني ان ذاكرتك لم تخنك الان ..

ـــ آه .. كلا .. كلا .. هذا مستحيل .. مستحيل

فاقتربت منها ، ورفعت يديها عن عينيها ، وقلت لها بصوت هادىء رزين :

ـــ اصغي الي ، انني لزمت الصمت حتى الان بصبر لا يعلم به غير الله ولكني استطيع الان ان اتكلم ، نعم انني لم أمت .

ولكني دفنت حيا ، فتأملي هذا يازوجتي العزيزة .. تأملي هذا الجسد الذي اصابته اغماءة فوضع في تابوت . وسمر عليه التابوت .. فمنع عنه الضوء والهواء الى الابد . من كان يظن ان الحياة ستدب في هذا الجسد من جديد .. وتدب فيه بقوة تمكنه من ان يمزق التابوت شر ممزق

فمرت في جسدها رعدة . وحاولت مرة اخرى ان تخلص يدها من يدي وهتفت في غضب :

ـــ دعني اذهب .. ايها المجنون الكاذب .. دعني اذهب .

فتركت يدها في الحال . وقلت :

ـــ انني لست مجنونا .. وانت تعلمين كما أعلم .. انني لا اقول غير الصدق ..

عندما خرجت من التابوت .. الفيت نفسي سجينا هنا في مدفن اجدادي .. وبين عظام أسلافي التي تنكمش الان من وجودك الدنس بينها .

قضيت هنا ليلة مخيفة .. مهددا بالموت جوعا .. والموت ظمأ . والموت رعبا .. وقد خطر لي انه لا يمكن ان يكون هناك عذاب أهول مما عانيت ولكني كنت مخطئا .. فقد اعدت لي الاقدار عذابا اهول وافظع ..

وجدت أخيرا وسيلة للخلاص .. فشكرت الله بصوت

دامع .. شكرته للنجاة .. والحرية والحياة .. ولو قد علمت وقتئذ ما ادخره لى القدر لاثرت البقاء والموت هنا على العودة الى اعزائى ..

ولكن هأنذا الان .. فهل عرفتنى ؟

ولكنها لزمت الصمت ..

قلت لها :

ـ اصغى الى ، ان عندى المزيد مما يجب ان اقوله لك .

عندما تخلصت من قبضة الموت ، وعدت الى بيتى ، وجدت مكانى الشاغر قد ملىء فعلا ..

وصلت الى منزلى فى الوقت المناسب لارى منظرا غراميا كان مسرح هذا المنظر حديقة القصر بين اشجار البرتقال ، وكان بطلا هذه الرواية ـ زوجتى ـ وجيدو ـ صديقى .

فأفلتت من فمها صيحة ذعر .. ولكنى اقتربت منها خطوة اخرى واستطردت قائلا بسرعة :

ـ هل سمعتنى ؟ كانت الليلة مقمرة .. والظروف جميعا ملائمة لتمثيل رواية غرامية من الطراز الاول .

واصغيت اليكما .. وسمعت انباء جديدة لم أكن أعلمها نعم .. علمت ان حسناء مثلك كبيرة القلب .. رقيقة الشعور يجب الا تقنع بزوج واحد . وانك وجدت من يشاركنى فيك ولما ينقض على زواجنا ثلاثة شهور .. لا تحاولى الانكار .. قلت لك اننى سمعت كل شىء .. يالله .. هل يزعجك وجودى الى هذا الحد ؟

ذلك انها اخذت تتراجع ببطء .. دون ان تحول عينيها عن وجهى ولما باتت على مبعدة منى .. انطلقت تعدو نحو الباب ..

تعثرت فى درجات السلم . وسقطت .. ثم نهضت وهجمت على الباب وراحت تهزه بكل قوتها .
ولما وجدته ثابتا كالصخر . عادت ادراجها .
فألقت بنفسها تحت قدمى وصاحت :
ـ فابيو ، فابيو ، رحمة بى ، أخرج بى الى الضوء والهواء ، دعنى اعش ، طأ جسمى بقدميك على مرأى ومسمع من جميع الناس ، فقط دعنى أعش ..

عفوا يافابيو .. اعف عني .. وسأكفر عن خطيئتى. سأعوضك عن الامك .. سأحبك وأخلص لك .. انظر الى .. اننى لم افقد جمالى .
وتعلقت بى .. ومدت الى شفتيها .. ولكنى نظرت اليها فى حزن وقلت :

ـ جمالك ؟ ! انه خلق للتراب .. اننى لا اقيم لجمالك وزنا أما عفوى .. فانك تطلبينه بعد فوات الوقت .. ان خطيئتك لا تقبل الغفران .

سأنيفك بعض الالام التى تذوقها .. لن الوث يدى بدمك ولكنى سأتركك هنا .. تعيشين بين الموتى الذين تفزعين منهم .

فنظرت الى فى رعب .. وخيل الى ان عينيها جمدتا فى محجريهما .
وفى هذه اللحظة .. انت الريح انينا مزعجا .. ودوى صوت الرعد .
فتقلص وجهها .. ولمعت عيناها لمعانا مخيفا .. ثم انفجرت ضاحكة .
كانت ضحكة مخيفة جعلت الدم يجمد فى عروقى ..
وضحكت ، وضحكت ، ولكن ضحكاتها لم تقترن بشىء من علامات البشر والمرح ...

كانت سحنتها متقلصة تقلصا مخيفا ، وقد غاض ماء الجمال من وجهها ..
ضحكت ، ثم راحت تترنم باحدى الاناشيد الشائعة .
ترى هل ذهب الرعب بعقلها ؟ .

صرخت : نينا .. فنظرت الى نظرة غريبة ، ثم ضربت الارض بقدمها وصاحت بلهجة الامر : من أنت ؟ انت مت ، فكيف جسرت على الخروج من القبر ؟ .

ثم عقدت يديها فوق صدرها وقالت كأنها تحدث شخصا فى الظلام :

ـ انه مات يا جيدو .. فهل يسرك هذا ؟ .

وتريثت كأنها تنتظر الجواب .. ثم استطردت :

ـ انك لا تجيبنى .. فهل أنت خائف ؟ لماذا أنت ممتقع الوجه ؟ هل انت قادم للتو من روما ؟ ماذا سمعت عنى؟ اننى خنت عهدك ؟ كلا .. اننى لازلت أحبك .. ولكن لا .. ليس فى مقدورك الان ان تبطش بى .. اننى استمتع الان بحريتى .. اننى سعيدة ..

وابتسمت ، وعادت تغنى ...

نظرت اليها .. كما انظر الى شخص ما ت.
نظرت اليها فى حزن وأسى ..

الان يجب ان انفض يدى من الانتقام ، ان من القسوة ان انتقم من مخلوقة معتوهة ..
لقد أضاعت عقلها ، كما اهدرت سعادتى ..

حاولت ان أردها الى الصواب ، وقبل ان أفتح فمى ، سمعت قصف الرعد مرة اخرى ، وعصفت الريح فى الخارج ، وخيل الى كأن مدافع ثقيلة تقذف حممها وتتحرك فوق رأسى .

وقبل ان اتقدم خطوة نحو نينا ، دوى فى المكان صوت

مخيف زلزل جوانب المقبرة وتساقطت الاحجار والاتربة، فأغمضت عينى بالغريزة وعندما فتحتهما ، كان كل شىء حولى ساكنا ، مظلما ، ثم زأرت الريح ، وشعرت ببعض اوراق الشجر الجافة ترتطم بوجهى ، ثم سمعت أنينا ..

وارتجفت أوصالى ، واستولى على رعب مخيف ..

دسست يدى فى جيبى .. واخرجت علبة ثقاب .. واشعلت منها عودا ..

لم أر على ضوئه شيئا فصرخت : نينا ...

لم اسمع جوابا ..

ووقع بصرى على احدى الشموع المطفاة .. فأشعلتها .. واجلت البصر حولى ..

أواه يا الهى .. لقد كان انتقامك اهول من انتقامى .

كانت صخرة هائلة قد انفصلت من سقف المدفن تحت ضغط العاصفة .. وسقطت فوق البقعة التى وقفت فيها (نينا) تبتسم وتغنى ..

سقطت عليها الصخرة .. فهشمتها .. ولم أر من جسدها سوى يدها .. وخاتم الزواج يتألق فى احد اصابعها ..

اهتزت اليد بعنف .. وضربت الارض مرة او مرتين . ثم سكنت حركتها .

كان منظرا مخيفا .. لايزال يتراءى لى فى أحلامى المزعجة

ثم رأيت سيلا من الدماء يتفجر من تحت الصخرة ..

مددت يدى الى تابوتى .. وتناولت الصليب الذى تركه الراهب (كريانو) فوق صدرى عندما (مت) فوضعته فى تلك اليد الصغيرة التى كانت حرارة الحياة لاتزال تدب فيها .

ثم حجبت عينى بيدى .. حتى لا ارى المنظر المخيف!.
وانطلقت نحو الباب كالمجنون .. ولا ادرى اية قوة دفعتنى الى ان انظر ورائى ..

نظرت .. ورأيت مشهدا لن أنساه ما حييت ..

رأيت القمر مطلا من الثغرة التى احدثها سقوط الصخرة .. ورأيت تلك اليد البيضاء تسبح فى ضوء القمر .. والخاتم الماسى يتالق كأنه آلاف النجوم ..

أفلتت من بين شفتى صيحة ذعر .. ووثبت الى الباب كالمجنون .. ففتحته .. ونفذت منه ثم اغلقته .. كما لو كنت أخشى ان تدب الحياة من جديد فى ذلك الجسم المهشم .. وان تنطلق صاحبته فى أثرى .. تطاردنى ..

وعندما بزغت شمس اليوم التالى .. كنت واقفا على ظهر الباخرة (روندتيللا) ، وهى تمخر بى وبسائر المسافرين عباب البحر فى طريقها الى .. آمريكا ...

وضعت يدى فى جيبى ، واخرجت مفتاح المقبرة ، والقيت به فى الماء ..

لماذا احتفظ به ؟ .

لقد ماتت (نينا) .. قتلتها الاقدار ...

ترى ماذا كان يحدث لو لم تسقط عليها تلك الصخرة؟.

لم أشأ التفكير فى جواب لهذا السؤال ...

كنت اريد ان انسى ، يجب ان انسى ، ولكن هيهات .

((تمت))

شركة مطابع الدار البيضاء
الحاج أحمد سعد الأبيض وابنائه
القاهرة – العباسية
١٨ ش مستشفى الدمرداش .

روايات الجيب

أروع ما أنتجته قرائح كتاب

القصة فى الشـــرق و الغرب

فى هذه السلسلة تقرأ قصص

الحب و الحرب و المغا

ثمن العدد .... روا

٢٠٠ قرش

8
74
0401243